روايات الهلال

# بذور الشيطان

أبو عبدو البغل

scanned by jamal hatmal

# بذور الشيطان

لينا كيلاني

دار الهلال

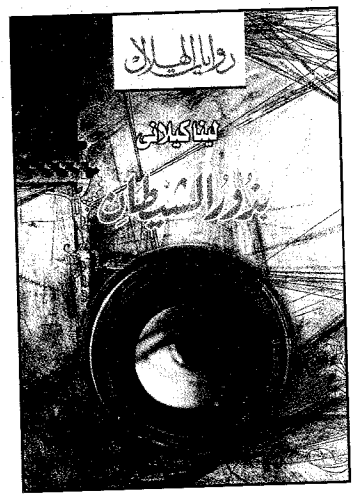


الخطوط للفنان

**محمد العيسوى**

الغلاف للفنان

**أحمد أبوالسعود**

متابعة

**ياسر شعبان**

# مقدمة

هذه رواية من الواقع الخيالى فى العلم، تعتمد على معلومات علمية دقيقة منشورة فى المجلات الزراعية، ومبثوثة علي الإنترنت.. وهى تتعلق بهندسة الجينات النباتية، والبذور المحسنة وراثياً، والتى يحاول العلماء إدخال الجينات الحيوانية أو البشرية إليها، وخاصة الحبوب. وبما أن النتائج تحتاج إلى مدة زمنية طويلة كى تظهر، ومن العسير إخفاؤها ضمن مناطق زراعية واسعة، فإن التوجه نحو أرض منسية أو غير مطروقة من البشر؛ يكون هدفاً بحد ذاته.

ولما كانت مناطق من أفغانستان تعانى من الإهمال، وقد هجرها أكثر سكانها بسبب الحرب أو الجوع؛ فإن التجربة هناك مناسبة.

كيف تمت التجربة؟ ومَنْ كان منفذوها؟ وما هى النتائج؟

ذلك ضمن سلسلة الأحداث الروائية.

لينا

القاهرة فى ٢٠٠٤/١٢/٢٥

الفصل الأول:

# الرحيـل

أنا من ينقل اليكم أحداث هذه الرواية.. أمريكي.. نعم أمريكي الجنسية والإمكانية الحضارية.. لكني من أصل آسيوي.. وملامحي تدل على ذلك.. فجدي المباشر هو الذي هاجر إلى كاليفورنيا.. وعمل والدي في إحدى المزارع الشاسعة الواسعة فيها كمشرف عام على العمال.. وخاصة أثناء حصاد الحبوب.. ونال ثقة مخدومه إلى أبعد الحدود. أما صاحب المزرعة فهو الذي رعاني وأنفق على تعليمي في أرقى الجامعات باختصاص نادر هو مزيج من علوم النبات أو تخصيب النبات وعلوم أخرى. وعندما توفي والدي، بعد أن سبقته والدتي إثر مرض عضال، وجدت نفسي وحيداً إلا من الرجل الشامخ صاحب المزرعة.. وقد أصرّ عليّ ألا أغامر بالرجوع إلى وطني (الهند).. فماذا ينقصني هنا؟ وأوكل إليّ عملاً مهماً في المزرعة يقرب من اختصاصي. بدوت سعيداً.. لكني لم أكن كذلك.. فهناك مرارة تخنقني.. وكأنني لم أولد في أمريكا.. ولم أكن بين أهلها وأسلوب عيشهم. ورغم الفتيات من حولي.. والمنزل الفخم الذي أعيش فيه فأنا لم أقرر الزواج والاستقرار.. وكنت في الليالي الصافية الهادئة أخرج الى أمداء المزرعة الكبيرة التي تضمني.. وهي عبارة عن سلسلة من المزارع يتصل بعضها ببعض، وتضم في إحداها مركزاً للأبحاث الزراعية تموله وتشرف عليه الجامعة التي درست فيها.

أقول كنت أخرج في تلك الليالي وتعتريني حالات من الذهول حتى عن نفسي.. وعندما أعود الى إدراكي تنهمر عليّ أمطار من الأسئلة: مَنْ أنا بين

هذه الأعداد الضخمة من البشر الدائبين على أعمالهم وكأن العمل هو كل شيء في الحياة؟!.. ولماذا أشعر بالغربة وأنا بينهم رغم أنني منهم.. وما هي الغاية من حياتي.. هل في طلب العيش لمجرد العيش، وتحسين ظروف هذا العيش كما تحسن البذور للنباتات والحبوب؟.. أليس لنا نحن البشر رسالة أخرى نؤديها في هذا العالم؟

أبي لم يكن متديناً.. وكذلك أمي، لكن أطيافاً من جدي الذي اعتنق ديانة ما قبل رحيله الى أمريكا كانت تحوم من حولي.. غامضة.. وبإلحاح أحياناً.. ولا أجرؤ حتى على التفكير في أن أنتسب الى طائفة أو دين. والغموض الذي يلف حياتي الروحية كان ينعكس على سلوكي.. فما أن أرى الناس أيام الآحاد يقصدون الكنائس حتى أنكمش على ذاتي.. أما في الأعياد التي يحتفل بها الأمريكيون في الميلاد مثلاً، رغم سطحيتها، فقد كانت تثير مشاعري وأفضل أن أقاطعها.

لماذا أشرح لكم هذه النبضات من حياتي دون رابط بينها؟.. لا أدري!!.. لكني في سبيل هذه الرواية التي أكتبها أجدني مدفوعاً الى ذلك.. فهوايتي المفضلة كانت الكتابة.. حتى أن صاحب المزرعة الذي كان نادراً ما يزورني في بيتي.. كان يقول لي:

– لو أنك درست في أحد فروع العلوم الإنسانية لكنت الآن مؤرخاً أو باحثاً أو أستاذاً في الجامعة.. لمن تكتب هذه الأوراق وبخط يدك دون أن تستعمل الكمبيوتر؟..

وأقول له:

– أليست هواية؟ لا أشعر بمتعة الكتابة وأنا وراء جهاز بل مع الورق والقلم.

فيضحك في شبه سخرية ثم يضع يده فوق كتفي ليقول لي:

– لابد أن أحملك يوماً الى مركز الأبحاث ولكن.. ليس قبل أن تخوض

التجربة.

ولم أكن أفهم ما معنى التجربة.. لعلي كنت أظن أنها تجربة الحب أو الحياة.. أو كسب العيش.. ولم يخطر في بالي قط أنه يهيؤني لهذه التجربة القاسية التي عشتها خلال سنوات أربع.. بين أعوام ٢٠٠٠ و ٢٠٠٤ .

أما بداية التجربة فقد كانت في الرحيل...

قبل الرحيل أصبحت مقرباً جداً من صاحب المزرعة.. ولنقل إن اسمه (جو)، فقد زارني في مسكني الصغير مرات عدة.. كصديق.. وعبث بأوراقي مثل صديق.. ورمى بعض النكات مثل صديق أيضاً.. وقال لي:

– إن هذا البيت هو بالطبع لك، فقد ورثته عن أبيك وأنت الوارث الوحيد.. ولكن ما رأيك بمزرعة بعد أن تعود وفيللا فخمة؟

وتساءلت بحيرة:

– إلى أين سأذهب وأعود؟

قال ببساطة:

– لتحقق التجربة.. ألم أقل لك إن أمامك تجربة؟

ولم أعلق بكلمة في المرة الأولى لأنني فوجئت، ثم أصبح بعد ذلك يدعوني إلى مشاركة أسرته في العشاء، وبما أنه لم يكن لديه ابن بل ثلاث بنات أكبرهن في السادسة عشر فقد أصبحت أجلس مباشرة إلى يمينه، بينما البنات الثلاث الى يساره وزوجته قبالته.. وكأنني ابنه فعلاً.. أو أنني المفضل على المائدة.. والبنت الكبرى (ميريام) كانت تصل الحديث بيني وبينها مباشرة بينما والدها مطرق يستمع وكأنه يشجعها.

قالت لي بعد حديث طويل عن السفر.. والمغامرة.. والشوق الى اكتشاف بلاد جديدة:

– حسناً.. ولكن متى ستسافر؟

وكأن أمر سفري مقرر سلفاً، ولم يبق إلا أن أحدد موعده. وفوجئت من

جديد.. ويبدو أن ملامحي عبرت عن ذلك.. فانسحبت الأم.. ولحقت بها البنتان الأصغر. أما (ميريام) فقد ظلت تنتظر الجواب. فقلت في نفسي: "لعل أمراً ما يدبّر لي وأنا لا أدري.. أو ربما هي تفترض ذلك باعتبار أن أكثر الشبان من أمثالي الذين ليست لهم جذور يسافرون إلى أوطانهم الأصلية، وقد يعودون أو لا يعودون، وكأنما هي بالتالي تعبر عن رغبة ضمنية لديها في أن أعود.

قال الأب:

– إذا سافر فما أظنه يعود قبل خمس سنوات أو أقل تقريباً.. المشروع يقتضي ذلك.

وذهلت.. أي مشروع؟ ولماذا يستغرق سنوات؟

إذن فالأمور تُبحث بعيداً عني، وما عليّ سوى الإذعان.. وتحرك صوت في داخلي يشعرني ولو للحظات أنني مصادر.. أو أن هناك وصاية عليّ.. ولكن لماذا؟.. أنا تجاوزت الخامسة والعشرين وأستطيع أن أقرر مستقبلي بنفسي.. أم أن هذا تعبير عن محبة هذا الرجل لي وحرصه عليّ.. بل اعتباره إياي تعويضاً عن ولد لم يرزق به؟

وكأنما شعر (جو) بما يدور في رأسي ونفسي فقال:

– أنت ولدي.. أو مثل ولد لي.. ولن أجد سواك يساعدني.. ليس في المزرعة ومشاريعها فلدي كما تعلم أعداد كثيرة من المساعدين والموظفين والعمال.. ولكن بالنسبة لهذا المشروع بالذات لا يوجد سواك.. نعم لا يوجد سواك.

ولما سألته:

– وما هو هذا المشروع؟

قال:

– إذا كانت فكرة السفر قريبة من ذهنك فسنناقش الموضوع بهدوء..

وبجلسة خاصة.

وهكذا تمت مناقشات طويلة شرح لي فيها مشروعه من وجهة نظره، وكما يبدو له، ليس علمياً فقط بل تجارياً أيضاً، وما سيعود به من الشهرة الواسعة والصيت الذائع لصاحب المشروع الذي هو (جو) بالطبع.. أما المنفذ فسوف يكون له نصيب من كل ذلك وكأنه الوعد منه.

★★★

عشية الرحيل كان (جو) مضطرباً جداً وهو يقول لي:

- سوف ترسل إليك شحنة البذور التي ستجربها في تلك الأرض.. ولكن ليس قبل أن تتصل بمن اعتمدناهم هناك ليحددوا لك المنطقة ويسلموك أوراقها.

قلت بسذاجة أندم عليها الآن:

- وهل تعني أني سأتملك تلك الأرض؟

قال بغيظ مكتوم:

- لا.. سوف تستلمها منهم بشكل نظامي وتجري عليها تجاربنا.. يستفيدون هم من الإنتاج مجاناً مقابل الأجر ثم يستعيدونها بعد ذلك.

قلت وبسذاجة أيضاً:

- وأين سأسكن أنا؟.. هل فيها منزل؟

أجابني في ابتسامة صفراء:

- أي منزل؟!.. أرض قاحلة جرداء لم تعرف الزراعة منذ أمد بعيد.. تستطيع بمساعدة معاونينا أن تستأجر بيتاً قريباً من الأرض وتمتلك سيارة أيضاً.. وبهذا تُحل المشكلة.

قلت بمزيد من السذاجة:

- المدة المقررة تستحق أن أبني بيتاً.. خمس سنوات ليست قليلة!!

أجاب بلهجة متراخية:

– وهل ستسكن وحدك في تلك الأصقاع الموحشة المجهولة؟!.. يمكن أن تتعرض لمتاعب من اللصوص أو أفراد عابرين من القبائل.. أو ممن يعارضون المشروع، أو...

والتقطت الكلمة:

– لماذا يعارضون المشروع مادام لمنفعتهم وسيأخذون غلاله؟

عند ذلك قطع الحديث، وقال:

– على عشاء اليوم سيكون لدينا ضيوف، علماء وباحثون مشاركون في المشروع. لا تتأخر عن الظهور بيننا.

وفعلاً جاء موعد العشاء، وجلست إلى يمينه للمرة الأخيرة، وكأنني أنا المهم بين المدعوين وقد جاء أربعة منهم فقط. أما زوجته وبناته فقد اختفين ماعدا البنت الكبرى التي أصرت على الحضور رغم أن والدها على ما يبدو لم يكن راغباً بذلك، ولهذا لم يعرها اهتماماً حتى انسحبت فور انتهاء الوجبة بعد أن اقتربت مني وهمست لي:

– أرجو أن تعلمني هاتفياً قبل سفرك.. هناك أمور مهمة أريد أن أحدثك بها.

وللأسف.. لم أتصل بها واكتفيت بإرسال تحية لها مع والدها.. لماذا لم أفعل؟ هذا ما أجهله.. لعلها فعلاً كانت ستقول لي أشياء مهمة.. أو ربما أفضت لي بسر.. ولكن هذه هي الأقدار التي تتحكم بالناس لتقودهم الى نتائج لم يكونوا يتوقعونها.

المهم أن الضيوف الأربعة على المائدة كانوا جادين، وكأنهم في اجتماع وليس على مائدة عشاء. وبنظرة وإيماءة من (جو) وقد لحظتها جيداً قال أولهم وهو قد عرّف بنفسه بأنه عالم في هندسة الجينات للنبات:

– الحقيقة إن النتيجة على ما أعتقد هي مضمونة رغم أنها تحتوي على عنصرين مختلفين: نباتي وحيواني.. فقد أصبح في مقدورنا أن ندخل جيناً

مأخوذاً من فأر مثلاً الى المادة الوراثية لنبات الذرة، أي أنه بإمكاننا تطعيم المادة الوراثية للنباتات الاقتصادية بجينات من خارجها فنغني بذلك النباتات بصفات لا تنطوي عليها.. وهذا بدوره يكسب تلك النباتات صفات تسويقية لم نكن لنحلم بها.

وأضاف الآخر وهو عالم جراثيم:

– إذا كانت أبحاثكم المزدوجة بين النبات والحيوان حديثة فإن أبحاثنا البيولوجية الحيوانية موثوقة تماماً.. وخاصة في الفترة الأخيرة بعد إنتاج النعجة (دوللي).

أما الثالث وهو مهندس زراعي لا أكثر فقد أضاف:

– لكن أبحاثنا التطبيقية على النبات هي أكثر خطورة على البيئة والإنسان من جميع ما توصلتم إليه في أبحاثكم بما فيها (دوللي)، إنما الأمر يحتاج الى أرض قابلة للزراعة لنوعيات متفوقة من النباتات وليس لمجرد الزراعة فقط.. أنتم تعلمون أن الأرض تفقد عناصرها على توالي الزمن.. وليس كما هو معتقد بأنها تختزن عناصرها.. وخاصة إذا كانت أرضاً محروقة بالحروب.

قاطعه الرابع مُحنَقاً:

– هذه ليست مشكلة.. نستطيع تخصيب التربة.. أو إضافة تربة جديدة لها.. المهم هي الفحوصات التي تجري على الأرض بعد تجهيزها.. وبدقة شديدة.

أوشكت أن أقول: ومن سيفعل ذلك؟.. عندما بادر (جو) قائلاً:

– إن لجنة مختصة سوف تزور المنطقة بعد إعداد الأرض تماماً للزراعة.. بل هي ستحدد التوقيت بعد استخلاص النتائج المطلوبة من تقارير اللجان بتهيئة الأرض كما ينبغي.

وبدت الأمور كلها غامضة بالنسبة لي.. من هي تلك اللجان؟.. ومن

سيرسلها؟.. ومن سيتحمل مسؤوليتها؟.. وأنا.. ما هو دوري بالضبط؟.. هل أنا حارس فقط.. أو أنا حاضن لهذا المشروع دون أن أعرف تفاصيله وأسراره؟.. فـ (جو) لم يشرح لي شيئا من هذا. وبدا لي أن عليّ أن أهرب من هذه المهمة.. ولكن (جو) كان قد سد عليّ الطريق.. أو هو صادرني.

ولم يكن بإمكاني التراجع الآن.. وكأنني أصبحت جندياً يذهب الى ساحة معركة ليس مقتنعاً بها. ثم إنني من جهة اخرى لماذا أبقى هنا؟ إذا كان (جو) يستخدمني فهو على أي حال يفعل ذلك وأنا معه.. ولو تركته فماذا سأعمل؟.. والأمر أيضاً يقتضي تغيير أسلوب حياتي كاملاً.. من توفير مسكن جديد.. وعمل جديد.. و... و... ثم إن اختصاصي العلمي مرتبط بطريقة أو بأخرى بـ (جو) ومشاريعه ومزرعته هذه بالذات.

قلقي كان ينمو خلال العشاء.. ومن ثم سهرتي وأنا وحيد في مسكني أجمع أغراضي وأوراقي اللازمة للسفر.. ولم يأتني النوم. وفجأة.. وقبل الفجر تقريباً سمعت خطوات تقترب من بيتي في الحديقة الصغيرة ,توجست شراً لأن أعصابي مشدودة.. فمن سيأتي إليّ في مثل هذا الوقت؟.. ولم يخطر ببالي أبداً أنه (جو).. لكنه كان هو.. دخل هادئاً مثل متسلل وهو يحمل في يده مصنفات وأوراقاً، وقال لي وهو مطرق:

– هذه أوراق قد تفيدك لو أردت مراجعتها.. إن فيها تفاؤلات أو تنبؤات.. سمها كما تشاء.. للمرحلة التي تلي نجاح مشروعنا.. لكن أهداف المشروع بالطبع هي لدينا.. أو بالأصح لدى المؤسسة السرية التي أنتمي إليها.. وهي مؤسسة علمية على أي حال وأنا لا أعرف إلا جانباً واحداً من الهدف.. وهو النجاح الذي يجب أن نصل إليه بأي ثمن.

قلت وأنا شبه يائس من أن أطّلع على سرٍ ما:

– إذن.. ما عليّ سوى أن أبذل غاية جهدي من أجل النجاح أليس كذلك؟

ارتبك قليلاً وقال:

– الحقيقة إن مهمتك ليست أكثر من تنفيذ ومراقبة. لكن المهم أن تعرف.. أن تعرف....

قلت بمرارة:

– وما الذي يجب أن أعرفه؟

قال :

– التحفظ على الإدلاء بأي معلومة تشير الى أن هناك أهدافاً اخرى نرجوها من هذه التجربة.. لأنها تحت إشراف مؤسسة علمية سرية. ولا أن تقول إنني أنا الوسيط بين المؤسسة وبين المشروع.. لا من حيث كوني صاحب مزرعة بل كشريك في المشروع.

قلت:

– ماذا تعني بشريك في المشروع؟

قال:

– أنا بالطبع شريك في الأرباح.. ولكني لست شريكاً في المؤسسة نفسها وإنجازاتها العلمية. تصور يا فرانك (وهذا هو اسمي).. تصور لو أن هذه التجربة نجحت تماماً.. كم سيعود عليّ ذلك بالفائدة.. إن كل محصول سنوي من هذه البذور سيجعلني أربح مبالغ طائلة.. وفي نهاية السنوات الخمس وبنجاح المشروع سوف أتلقى مكافأة مالية كبيرة.. وشهادة اعتبار من المؤسسة.

ونظرت إليه بغضب مكتوم وكأنني أقول: "وأنا ما الذي سأناله؟"

قال كما لو أنه يقرأ أفكاري:

– أما أنت فستنال منحة دراسية مجانية لمتابعة دراستك العليا في أرقى الجامعات.. مع مرتب شهري ضخم يكفل لك حياة سعيدة طوال عمرك.. ما رأيك؟

ولم أرد عليه.. وتشاغلت بضم أوراقه الى أوراقي عندما قال لي:

– لا.. ستترك هذه الأوراق معي وأنا سأرسلها لك مع أشخاص أمناء عليها.

قلت مغتاظاً:

– ولماذا أتيت بها إذن؟

قال منكسراً:

– لعلك تطّلع عليها بسرعة وتعرف ما بها بشكل عام.

قلت:

– وهل لدي الوقت لذلك ولم يبق على انطلاقي للسفر سوى ساعات قليلة؟

ضم الأوراق الى صدره، وقال:

– حسناً.. سأرسلها لك في أقرب فرصة.

وشعرت فجأة بنفور من (جو) وكأني لم أعش معه وفي رعايته طوال عمري.

★★★

الفصل الثانى:

# أحلام لا تفسير لها

بعد أن ودعت (جو).. وبيتي الصغير.. وأشيائي العزيزة التي رتبتها بحيث لا تمتد إليها يد.. وحملت الاخرى الصغيرة معي.. أقول بعد أن قمت بكل شيء يريحني ويجعلني مستعداً للغياب سنوات طويلة.. أحسست أنني قلق بطريقة غير اعتيادية.. لماذا وكل م[ا أقوم به وكأنني اقتنعت به؟!.. واتفقت مع (جو) على حريتي ومكافأتي في حال نجاح المشروع.. كما اتفقت معه ألا يتصرف ببيتي الصغير هذا حتى أعود. صحيح أنني لن أسكن فيه فيما بعد ربما.. ولكنه من حقي أنا وحدي أن أقرر ذلك.. لاسيما وأن (جو) قد ألمح لي أنه يمكن أن يؤجر البيت لعالم وافد أو موظف جديد، واستفيد أنا من الأجر. قلت بصوت مرتفع:

– لا.. أرجوك.. وصورة أبي وأمي الموجودة قرب سريري يجب أن تظل في مكانها حتى أعود.

واستجاب لرغبتي على الفور.. وبدا هادئاً مطيعاً لطلباتي.. لكنني في لحظات الوداع لاحظت أنه هو الآخر قلق كما لو أنه هو المسافر لا أنا.. وكأن كلاماً في داخله يريد أن يفضي به لكنه تراجع. وبدأت سلسلة من عبارات المجاملة وهو يوصيني أن أعتني بنفسي.. وان أتصل به فيما لو تعرضت لأي مشكلة.. ثم مد يده الى جيب قميصه الصغير وأخرج قطعة من المعدن عليها رسوم غريبة ظننتها من المعدن المطلي بالذهب لكنه قال:

– إنها من الذهب الخالص.. وهي أيقونتك.. أو فألك الحسن.. لا تتركها أبداً.. وإذا صادفتك متاعب تستطيع أن تخرجها أمام أصدقائنا فيسارعون الى نجدتك.

صراخ مفزع.. كان صراخي.. والرجل يمسح فوق رأسي المبلل بالعرق وهو يقول:

– كابوس مزعج.. أليس كذلك؟.. هذه بلاد تسكنها الشياطين.. وترتفع فوق قمم جبالها الملائكة.. ومادمنا نعبر وادياً فلا شك أنه شيطان. اقرأ هذه الكلمات....

وعلمني كلماتٍ بلغة غريبة عرفت فيما بعد أنها العربية، ووجدت نفسي أروي له عن كابوسي ببراءة وعفوية كما لو أنه صديقي.

قال:

– بالفعل كابوس رهيب.. أن ترى ذلك المخلوق يمتطي القطار الذي أنت فيه وفوق عربتك بالذات. الم أقل لك إنها أرض شيطانية؟

قلت:

– تكرر هذا المنظر أمامي.. بل ظل ثابتاً لمدة طويلة.. مخلوق أسود اللون يشبه وجهه البشر لكنه قبيح.. النار تقدح من عينيه.. وأنيابه بارزة وله قرون في رأسه الأصلع.. أما يداه فمثل أدوات حديدية ذات رؤوس مدببة.. وهو في جلسته فوق القطار كأنما هو ينبت فيه.. وأرجله قصيرة وذات أظلاف كالماعز.

هب الرجل من مكانه وقال:

– هذا هو الشيطان حقاً كما يصفونه في كتب السحر القديمة.

قلت:

ـ وهل له وجود حقيقي؟

قال:

– لا.. ومن اجل أن تطمئن سأنظر الى ظهر العربة.

وبلمح البصر فتح النافذة، ووضع قدميه على حافتها، ثم مد جسده إلى الأعلى بحيث لم أعد أرى سوى ساقيه، ولبث برهة ثم سحب نفسه إلى الداخل، وقال وهو يلهث:

ولما لم أسأله ما هي هذه الرسوم المنقوشة فوقها للمفاجأة التي واجهتها، قال:

– هذه رسوم هيروغليفية.. يقولون إنها تملك قوة السحر.. ويمكن لمن يؤمن بها أن تحل له كل المشكلات.

ولم أعلق بشيء.. وعانقته من غير دفء في العاطفة بينما كان هو يشدني إليه بعصبية وقوة ثم افترقنا.

وفي ممر الحديقة الصغيرة وأنا مطرق الرأس بينما أحد خدم المزرعة قد سبقني بحقائبي برزت لي (ميريام) بشكل مفاجيء، وهي تلهث وعيناها الصافيتان يشع فيهما ألق غريب، قالت:

– إذن.. أنت ستسافر فعلاً.. خمس سنوات.. هل تصورت ماذا تعني خمس سنوات؟

لم أكن قد اتصلت هاتفياً بمريام.. ما نسيت بالطبع لكن إحساساً بأن مكالمتي لها ستعكر قراري بالسفر أو ربما ستسبب تأجيله قد منعني عن ذلك.. فأنا قد قررت وانتهى الأمر.. و(ميريام) في موقف غامض بالنسبة لي.. فلا هي من النضج بحيث تقول إنها تحبني مثلاً.. ولا أنا أعتبرها فتاة ناضجة يمكن أن أبادلها العاطفة.

المهم أنني رأيتها من بعيد وهي تقف أمام باب (الفيللا) التي يقطنها (جو)، وكأن الدموع في عينيها.. وفجأة قبل أن تتحرك السيارة صرخت وأسرعت نحوي تقول:

– من فضلك يا سيد فرانك.. قل لأبي أن يسلمني سيارتك بعد عودتها من توصيلك.. سأتعلم قيادة السيارة خلال عامين.. وأنا حريصة على أن أمتلك سيارتك أنت بالذات.

قلت بعفوية:

– لكني لم أبعها لوالدك.. إنه سيحتفظ بها فقط حتى أعود!!

قالت:

– حسناً إذن.. سأستخدمها وأعيدها لك بعد رجوعك.

قلت ممازحاً:

– وستكون قد استهلكت.. أليس كذلك؟

قالت:

– ستشتري غيرها من طراز أحدث.

وخفضت صوتها، وأضافت:

– لماذا لم تكلمني؟.. حاول ذلك من مكانك هناك في ذاك البلد المجهول.

قلت:

– ما أظن أن الاتصالات متاحة بهذه السهولة.. إنه بلد مدمّر نتيجة الحروب.. وليس متقدماً إلى هذا الحد.

قالت:

– إذن.. ابعث لي برسالة إلى المدرسة مع عنوانك ورقم الهاتف لو كان متاحاً.

ومضيت في سبيلي والغيوم الرمادية تملأ السماء فتنذر بأمطار غزيرة.

★★★

كان عليّ أن أصل إلى عاصمة الولاية أولاً.. والانتظار ساعات حتى أستقل الطائرة التي تنقلني الى إحدى العواصم في آسيا الوسطى، ومن ثم الذهاب إلى وجهتي وهي بلاد أفغانستان. وكنت أرغب لو أنني أزور إحدى البلاد العربية ثم أتوجه الى أفغانستان.. لكن الخطوط الجوية التي تؤمّن ذلك لم تكن ميسرة.. وما عليّ في هذه الأوقات المتاحة لي سوى أن أنظر في الخرائط والنشرات بين يدي لألتقط معلومات عن هذا البلد، وعن آسيا الوسطى.. فما يدريني ما سيواجهني هناك؟!.. ولكن هل سأضمن التوقيت المضبوط لانطلاق الطائرة المتوجهة الى أفغانستان. المعلومات يمكن أن تمدني بلمحة عامة أو خاصة.. أما اللغة فمن المحتم أنهم لا يعرفون إلا الروسية أو لغة بلادهم.. لكن التفاهم يمكن أن يحصل على المستوى

السياحي على الأقل.

وما أن نظرت إلى الخرائط، وقرأت شيئاً عن هذه المناطق حتى أصبت بالدهشة.. بلاد وعرة.. الجبال فيها سمة مميزة.. وسهول في المنخفضات.. ومسافات شاسعة بين مدينة وأخرى. فالحال إذن في أفغانستان الشهيرة بجبالها وصخورها واتساع رقعتها أكثر صعوبة، إضافة الى أنها بلاد تعج بالمقاتلين والثوار، والمتطرفين من الإسلاميين الذين لا يزالون يخوضون حروباً من أجل عقيدتهم منذ أن احتل السوفيت أراضيهم.. فما هي إذن هذه العقيدة (الإسلام) التي تمد الناس بكل هذا التصميم على القتال في أصعب الظروف.. وفي أكثر المناطق وعورة وفقراً وصعوبة. لابد إذن من أن أطّلع على الإسلام.. لكن ليس قبل أن أستقر في القرية التي أسموها لي.. ليست قرية في الواقع لكنها بلدة صغيرة.

أمضيت ثلاثة أيام بلياليها في عاصمة كازاخستان قبل أن أستقل الطائرة إلى كابول.. كانت أياماً مفعمة بدهشتي.. بل بانبهاري بكل ما حولي.. كل شيء جديد بالنسبة لي.. البشر.. والأزياء.. وأسلوب الحياة.. والأبنية.. والحدائق.. فالعمارات الشاهقة والمؤسسات الرسمية على الطراز الحديث الى جانب الأحياء القديمة، وكأن التاريخ يحاصرها فلا يفلتها من قبضته. النساء المبرقعات أو الملفوفات بالسواد والعباءات الى جانب النساء العصريات بكل ما في الكلمة من معنى.. حتى الأطفال.. بعضهم يرتدي أزياء تقليدية ويضع عمامة صغيرة على رأسه.. ويتوجهون الى المساجد أو المراكز الدينية.. وبعضهم الآخر يضع المحفظات فوق الظهور في طريقهم الى المدارس. واللغة رغم غربتي عنها فقد بدت لي ذات إيقاع حزين، بينما المفردات العربية أو الروسية في تقاطع معها.

في الفندق الصغير التابع لشركة الطيران نمت تلك الليالي، تهاجمني الأحلام الغريبة وربما الكوابيس.. فأرى نفسي في بساتين لا حدود لها تحمل أشجارها ثماراً عجيبة.. أو أرى نفسي في طرقات مظلمة لا أعرف

الخروج منها. وكانت تجربة فريدة من نوعها هيأتني للمرحلة الجديدة والجدية التي سأدخل بها.

من كابول إلى قندهار كان عليّ أن أركب في قطار عتيق يخترق أنفاقاً في الجبال، ويسير ببطء سيوصلني الى البلدة الصغيرة. ولم يبق عندي أمل في مساحات شاسعة من الأراضي تصلح للزراعة بعد كل هذه الجبال في الجهات الأربع.. لكن فجأة خرج القطار من المنطقة الجبلية وسار متهادياً في منطقة سهلية مترامية الأطراف ولو أنها قاحلة جرداء، وتربتها بين اللونين الترابي والرمادي.. بل الأسود أحياناً.. أراضٍ كأنها لم تعرف الزراعة منذ قرون.. والهواء يهب فوقها فيصرخ فيها بما يشبه عواء الذئاب. هل هذه هي الأرض التي سأعمل فيها لتتحول إلى جنة تفيض بالخصب والخضرة؟.. وأخذني النوم بعد أن هدأت أعصابي.. وصفير القطار الناشط يملأ سمعي.. تحتاج الرحلة الى ساعات.. فلماذا لا أستريح؟ وقد يدخل الليل قبل أن نصل. وفعلاً هبط المساء ساكناً رمادياً.. ولا معالم للحياة في هذه المساحات الجرداء.. ومن بعيد جداً لاحت أضواء قرى خافتة تخفق مثل قلوب متعبة.

في القطار الليلي الذي أخذ ينساب مثل أفعوان في تلك السهول الصامتة أخذ النوم يستولي عليّ بقسوة.. هل سببه تلك المشروبات الساخنة ذات الأبخرة المعطرة التي اشتريتها من عربة (الندوة) في القطار؟ ربما ذلك لأن المضيف سألني إن كنت أريد شراباً مهدئاً، ثم ابتسم.. أظن أن تلك الأعشاب التي وضعت في الماء المغلي تحمل شيئاً من مادة مخدرة وإلا لما شعرت بثقل النوم على جفوني.. لكنني استسلمت وقلت: "ولماذا لا أنام مادام الطريق سيستغرق ساعات؟ أليس أفضل من أن أزرع عيني في ذلك الظلام الموحش.. أو أن أستمع الى الأحاديث التي تصل إلي من العربات الأخرى بلغة لا أفهمها؟".

لكن أحلامي في تلك الليلة لم تكن جناناً.. ولا وعوداً بالخصب والنماء..

والخضرة والخير.. وقد جئت من أجل ذلك.. بل كانت كوابيس رهيبة رأيت فيها أفاعي وقردة وأشخاصاً ممسوخين بثياب عجيبة. كنت أنتفض مذعوراً.. ولا ألبث أن أعود للنوم حتى استبد بي ذلك الحلم الفظيع فما عاد يتركني. رأيت نفسي في القطار ذاته الذي أنا فيه وفي المنطقة ذاتها أيضاً لكنني كنت مدفوعاً لأن أمد رأسي من النافذة لأرى شيطاناً يمتطي القطار.. يقهقه مني ساخراً.. نعم شيطان.. بقرونه التي تتحدث عنها الأساطير.. وبأنيابه البارزة.. وعيونه التي تلمع بالشرر.. ثم برجليه المثبتتين فوق عربتين من القطار مثل أظلاف ماعز خرافية.. كان يمد يده بأظافر سميكة وطويلة ليمسك بشعري.. وعندما أصرخ لاقتراب أظافره من رأسي يقهقه أكثر ليلامس وجهي بظاهر كفه، ثم يشد إليه شعري الأسود الأجعد. أعود للصراخ فيترك رأسي.. وأفيق.. وما ألبث أن أعود للنوم فيعود ليقبض على شعري مثل قطعة قماش سوداء فيقرّب فمه من أذني ليصب فيها لفحاً من اللهب المنبعث من فمه، ويقول لي: إعرَف اسمك.. اعرَف نفسك.. اعرَف هدفك.. اعرَف من أين أتيت؟ ولماذا أتيت؟

وما إن أبدأ لأقول له خاضعاً: إن اسمي (فرانك) وأنني.. وأنني...، حتى يختفي في شعلة من نار.. ثم يعود ليظهر.. ثم يختفي.

وهكذا عانيت من ليلة كابوسية رهيبة لم أعرف لها تفسيراً في حينها.. ولعلها الآن تبدو لي بأحداثها أكثر وضوحاً.. لماذا لم أستطع الإجابة عن أسئلته رغم أن إجاباتي كانت ستمنع عني معاناتي أو جزءاً منها على الأقل؟

وعند خيوط الفجر.. ومع اقتراب وصولنا الى تلك المدينة الصغيرة كان العرق يتصبب مني.. وأنا أشعر بإجهاد شديد كما لو أنني قطعت كل تلك المسافات مشياً.. لامسني حلم خفيف أقرب الى اليقظة فرأيت وجه أمي يبتسم لي.. شعرت بالحنان والاطمئنان فأخرجت من محفظتي عندما صحوت صورتها مع أبي، وأخذت أستعيد ذكريات طفولتي في مزرعة (جو).. وأركض وراء أحلام مراهقتي، وأخذ القطار يصفر بلا انقطاع..

وتهدر أصوات عجلات القيادة كما لو أنه يمشي فوق حجارة.. وبدأ الركاب يتحركون من أماكنهم ليجمعوا أغراضهم استعداداً للهبوط. ولما كنت لا أحمل سوى حقيبة سوداء صغيرة في يدي.. وحقيبة ملابس وحيدة خفيفة الوزن فقد رأيتني مدفوعاً لأساعد أولئك الناس في جمع أغراضهم في أكياس قماشية أو صرر بما تشمله من أشياء غريبة كأباريق الشاي، والكؤوس، أو الحيوانات والطيور المحنطة، أو علب الحلوى ذات الروائح النفاذة.

حسناً.. لماذا لا أتعاطف معهم؟ لعلهم من أبناء تلك المدينة.. وسأعيش بينهم.. ولابأس أن يتعرفوا على جانب إنساني من شخصيتي.. ولم يعترض أحد كبار السن على مساعدتي له، بل تركني أجمع أغراضه بينما ظل منزوياً في جانب العربة ينظر إليّ ثم يبتسم. وما إن هبطنا من القطار والخارطة في يدي حتى تقدم مني وقال بلهجة إنكليزية محطمة:

-إلى أين أنت ذاهب في هذا الصباح المبكر؟

قلت وأنا أشير على الخارطة:

- إلى الفندق الذي ترى اسمه مكتوباً بلغتكم هنا.

اقترب مني ورائحة غريبة تفوح منه ثم نظر الى الاسم، وقال:

- إنه فندق جيد.. لكنه مرتفع الأجرة.. هل ستقيم به وقتاً طويلاً؟

وفهمت أنه يسألني بطريقة غير مباشرة عن هدفي من المجيء الى بلدتهم، فقلت:

- لا أدري.. ربما سأمكث فيه بضعة أيام أو أسابيع.

نظر إليّ بفضول وبشوق لأن يسمع أكثر مما سمعه، فقلت:

- أنا خبير زراعي.. جئت في مهمة إنمائية إنسانية ولا ادري كم سيستغرق ذلك من الوقت.

لكن شعاعاً غريباً طفر من عينيه وهو يقول:

- المشاريع الزراعية تقتضي وقتاً طويلاً يا بني.. أليس كذلك؟ على أي

حال أنا أدعوك الى بيتي لتستريح.. وتشرب فنجاناً من الشاي المعطر ثم تنطلق الى فندقك ما رأيك؟

قوة غريبة جعلتني أوافق فوراً.. ولكن كيف أثق بهذا الرجل وأذهب الى بيته؟ يمكن أن يصيبني مكروه.. لعل الرجل لص أو مهرب مخدرات.. ما يدريني؟ ربما سلبني ما معي من المال.. إنها دولارات.. والدولار هنا باهظ الثمن.. يكرهونه لكنهم يتمنون لو يحصلون عليه.. وثيابي.. وأشيائي.. وهذه المحفظة التي تحتوي على جواز سفري وأوراق مهمتي.. ألا يمكن أن تسلب مني؟.. ومع هذا غامرت.. وذهبت.

بيته كان عبارة عن غرفة هي جزء من بيت تهدم في الحروب، ليس فيه أحد، والفوضى تسكنه، وأشياء بسيطة جداً تستقر في الزاوية من الغرفة. تركني الرجل وحدي، وخرج إلى بئر في ساحة ملؤها الحجارة، وغسل وجهه ويديه وقدميه بخشوع، ثم عاد وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، ففرش غطاءً ممزقاً على الأرض وتوجه بحركات غريبة عني فهمت فيما بعد أنها الصلاة. جلس على كرسي من القش المهترىء، وفتح صندوقاً معدنياً، وأخرج منه جهازاً يتقد بالبترول، ثم أخذ إبريق الشاي وخرج الى حيث البئر فملأه بالماء وعاد نحوي مبتهجاً ليحضّر لنا شاياً أخضر اللون ذا مذاق لطيف، وبحث بعصبية عن سكر يضيفه إليه فلم يجد، فضحكت وقلت:

– لابأس يمكننا أن نتناوله دون سكر إنه جيد على أي حال.

أخرجت له خارطة القرية التي سأستقر بها فيما بعد، وبصعوبة بالغة فهمت منه أنها قرية شبه مهجورة بعد أن تعرضت للحرب، فصمت وكأنه يشفق عليّ من الذهاب إليها، ثم قال:

– تذكر.. أنا صديقك، ويمكنك أن تأتي إليّ في أي وقت تشاء، ولعلك تصادف واحداً من أحفادي.

غادرته الى الفندق وأنا أشعر بتعاطف إنساني شديد مع ذلك الرجل الوحيد، لاسيما وأنه لحق بي ليقدم لي أغصاناً جافة نصحني أن أنقعها في

ماء دافىء ثم أشربه، وكأنني أحد أحفاده، وهو يوصيني فيقول:

- انتبه في الليل يكون البرد شديداً.

★ ★ ★

ها أنا في القطار من جديد.. ولكنه قطار صغير مهترىء ومخصص للتنقل بين القرى والبلدات. ها أنا أتغلغل في أفغانستان الآن، والقطار يمر بنا في مساحات من هذه البلاد التي توقف عندها التاريخ فمنحها عظمة الماضي، وترك جبالها المسننة الشاهقة دليلاً على الرهبة والخشوع.. رهبة تدخل الى قلوب الزائرين بشدة لأنهم لم يألفوا مثل هذه المشاهد لجبال صماء سوداء لا تنبض بها أضواء لتخوم قرى مسكونة، ولا تتخللها طرقات ذات مصابيح، أما الخشوع فله بقايا تلك الموجات من الرحالة والمسافرين في القوافل الذين عبروا هذه الجبال فتبددت عظامهم في الريح بعد أن ماتوا بصمت، ولم يعرف عنهم أحد سوى نسور الجبال ووحوش البرية، ولعل تلك المغاور أيضاً كانت مأوى للصوص أو للنساك والمتعبدين والمتزهدين. فيا لروعة تلك المشاهد رغم صمتها وكآبتها.

لم يكن أمامي وأنا مقذوف في هذا الجو الرهيب سوى أن أنضم على ذاتي مثل فأر خائف، أو أن أنام وكأن النوم مهرب لي.. وإلا فمع مَنْ أتناول الحديث وأنا في هذه العربة من القطار وحدي؟ وحتى لو خرجت الى عربات اخرى حيث بعض المسافرين القلائل فماذا سينفعني ذلك؟ لن يفهموا لغتي.. ولن أفهم لغتهم.. وربما توجسوا مني شراً.. أو تعرضت لبعض الأذى.

أغلقت باب العربة بإحكام، واستسلمت لهدوء لا أقول عنه إنه النوم بينما النافذة بزجاجها القذر مفتوحة على فراغ الليل المتحرك في السواد، ونافذة أخرى مغلقة لكنها تصر صريراً مزعجاً وكأن يداً شيطانية تهزها باستمرار. قلت في نفسي أضع هذه الصحيفة التي بين يدي في حوافي النافذة فأمنع الصوت، وأتحاشى النظر الى السواد الذي يفتح فمه في الخارج مثل وحش أسطوري.

ولعل إغفاءة أخذتني عندما أفقت على حفيف الصحيفة وهي تسقط على الأرض والنافذة مفتوحة، قمت بتثاقل لأعيد كل شيء كما كان حين قبضت على يدي يد قوية، وبرز أمامي وجه أسمر بعيون تقدح بشرر، قال بالإنكليزية:

- سأدخل الى عربتك.. هل تأذن لي؟

استغربت الأمر جداً والتفت الى جرس الإنذار لأقرعه عندما ضغط على يدي أكثر وقال:

- الجرس لا يعمل.. إنه معطل.. لا تحاول.. أجبني الى ما طلبت.. سأمضي الرحلة معك.

قلت بغضب مكبوت:

- إذن لماذا تسألني؟

قال:

- هذا ما يجب أن أفعله.. أنا رجل متمدن ومهذب أم ماذا تظنني؟.. من أي بلاد أنت؟

وخشيت أن أقول له إنني أمريكي.. فتجاهلت سؤاله عندما بدأ يحدثني عن نفسه، قال:

- أنا شاب متعلم.. درست في الهند.. ونلت شهادة رفيعة.. لكن ظروفي اضطرتني الى أن أعيش هكذا.. كمتشرد.. بل كلص.. انظر الى ثيابي إنها قذرة وممزقة. انظر الى وجهي وشعري.. لم أعرف الاستحمام منذ مدة.. ولا دخلت الى محل حلاقة. ماذا أفعل؟ ضاع مني جواز سفري، أو هم سرقوه.

تجرأت وسألت:

- ومن هم الذين سرقوا جواز سفرك؟

قال:

- الجماعة التي جئت لأنضم إليها.. الحقيقة أنني لم أكن قد قررت بعد

الانضمام الى هذه الجماعة الدينية المقاتلة.. وجئت لأطلع على حياتهم ومنهجهم بل قضيتهم، وظننت أنهم ماداموا متدينين فلن يمسوني بأذى.. لكن سرقة الجواز هي أكبر أذى.

قلت:

– وما يدريك أنهم صادروا جواز سفرك رغبة منهم في أن تلتحق بهم وحرصاً عليك؟

نظر إليّ نظرة طويلة وقال:

– هذا جائز.. لماذا لم أنتبه الى ذلك؟ على أي حال أنا هنا إنسان ضائع.. بلا هوية.. ولا إثبات شخصية.. وأظن أنني لن أعود إليهم.

قلت:

– بل يجب أن تعود من أجل جواز سفرك على الأقل.

فكر طويلاً ثم قال:

– الحقيقة أنني أضعت مكانهم ولا أعرف كيف أعود إليهم.

قلت:

– وماذا ستفعل إذن؟

قال:

– مادمنا في قلب أفغانستان فسوف أتدبر أمري عندما نصل الى القرية.

لم يعد يحدثني بل خلع سترته ووضعها تحت رأسه، ثم تمدد على المقعد قبالتي. قلت:

– وما اسمك لو أردت أن أناديك؟

قال:

– نادني بأي اسم تشاء مادمنا وحدنا في هذه العربة.

ولما رأيته هادئاً ساكناً مثل قط مسكين بعد اللجوء إلى مكان آمن وضعت محفظتي تحت ذراعي واستسلمت للنوم أنا الآخر.. وما صحوت إلا على

– اطمئن لا شيء فوق القطار كله.. لقد اختفى.. ولكن أما قال لك شيئاً؟

قلت وأنا أستعيد الكابوس:

– قال كلاماً لم أفهمه.. لكنه أشار بيده إلى جهة الشرق وكأنه يحذرني أن أذهب إلى هناك.

فكر الرجل قليلاً، وقال:

– عليك إذن أن تفعل العكس.. أن تذهب إلى جهة الشرق.

ولم اعرف عندما وصلنا إلى المحطة النهائية ماذا سأفعل مع هذا الشاب وهو يهم بجمع أغراضي قائلاً مشمراً عن ساعديه كمن يستعد لعمل ما:

– ها قد وصلنا.. سأتركك الآن.. سأخرج من النافذة أيضاً. هل تريد أن نلتقي؟

وصفعني السؤال: نلتقي؟.. لماذا؟.. من هو بالضبط؟.. وماذا يمكن أن يبدر منه؟

قلت:

– لم أعرف اسمك بعد وأنا بالطبع لا أعرف البلاد.. وهناك من ينتظرني وعلينا أن نفترق.

قال:

– اسمي موهاد.. ولن أزعجك في مرحلتك الانتقالية.. ولو شئت التحقت بك حيث أنت.. اعطني عنواناً مبدئياً.

ولم أجد نفسي إلا وأنا أعطيه عنوان النزل الذي سأقيم فيه ريثما يهيأ لي كل شيء للعمل، وافترقنا.

★ ★ ★

الفصل الثالث:

# عالم جديد

في النزل الصغير (ولعله الوحيد) الموجود في المدينة أقمت بين أناس أغراب، لا أعرف أسماءهم ولا هوياتهم ولا حتى علاقتهم بالمكان.. هل هم نزلاء.. أم عاملون فيه بطريقة ما.. أم زوار لصاحب النزل أم عابرون يأتون للطعام أو لقضاء ليلة أو بعض الوقت ثم يغادرون؟ كل شيء من حولي كان غريباً.. الوجوه.. والأزياء.. وأسلوب الحياة التي تبدو في ظاهرها بسيطة وعائلية وشبه عشائرية لكنها في الحقيقة محسوبة بدقة، فالناس هنا أكثر ميلاً للصمت.. وإذا تكلموا فبأصوات منخفضة فيتحكمون في تعبيرات وجوههم وحركاتهم التي تنطق عنهم.. فلو نظر واحدهم نظرة خاصة إلى خادم المطعم مثلاً لأسرع هذا لجلب الماء.. ولو حرك ثانيهم يده باتجاه ما لقام عامل باستدعاء الشخص المطلوب للمائدة.. ولو وقف ثالثهم ومد إحدى قدميه أمام باب الخروج لبادر فوراً أحدهم ليفتح له الباب الخارجي، ثم يضع يده بكل احترام فوق صدره منحنياً ويلقي بتحية ثم يعود.

عالم غريب فعلاً.. والمرأة لا تظهر فيه إلا قليلاً بثياب طويلة محتشمة جداً، وبغطاء للرأس، أو بعباءة واسعة تلفها من رأسها حتى أخمص قدميها فلا يبدو منها سوى عينين أو الوجه أو جزء من الوجه. والنساء فارعات الطول عموماً.. أو هكذا ظهرن لي بملابسهن التقليدية هذه.. وتبدو عليهن الملاحة لو انكشفت وجوههن مع نظرات فيها الوداعة كما فيها الخوف. ولكن ما شأني بالنساء؟ هنا عالم مختلف والتقاليد فيه هي أهم شيء.. ولا أحد يعرف ماذا يكون مصير الذي يتقرب من امرأة أو يتودد إليها فقد يناله الأذى، وربما يقتلونه، أو يختفي أو يرمونه خارج البلاد. إذن.. لا شأن لي

بالمرأة، حتى تلك الخادمة العجوز التي كانت تهيئ لي غرفتي وتختفي في اللحظة المناسبة. لم أحاول أن أكلمها حتى قالت لي يوماً بلغة إنكليزية ركيكة:

– أهلاً بك في بلادنا. سمعت أنك ستقوم بمشروع زراعي.. هذا جيد..نحن نحتاج إلى أمثالك من الذين يساعدوننا.. (ولم تحسن التعبير عن الاستثمار) هل أنت غني أم أن المشروع لحساب غيرك؟.. ما رأيك بالأفغانيين؟ إنهم طيبون.. ويحبون الحرية والكرامة، ولا يتعاملون إلا بهما.

ودهشت من مبادرتها لي.. ولم تكن حريصة على أن تأخذ مني معلومات عني أو عن المشروع.. وكأن همها كله أن تشعرني أنها تعرف أشياء عني وكفى.

بعد أن مكثت في النزل عدة أيام وأنا أحاول أن أنسجم مع هذا الجو الجديد جاءني الفريق المكلف بإقامة المشروع. كانوا في البدء سبعة.. ولكن الذين قاموا بالعمل فعلاً كانوا أربعة. أخذوني معهم الى قرية صغيرة فوق تلة أمامها سهل منبسط، وحولها من بعيد جبال قاسية فيها قرى أيضاً، وعرضوا عليّ قطعة الأرض التي سيتم فيها المشروع، وسألوني هل أفضلها على سواها؟.. ولما كنت لا أميز بين قطعة واخرى فاكتفيت بالقول إنني أفضل الأرض القريبة من القرية التي سأقطن فيها خاصة وأنني سأتنقل على ظهر جواد. قال أحدهم:

– الجواد لنزهاتك الخاصة أما تنقلاتك فستكون بسيارة جيب طبعاً.

وابتسمت ابتسامة باهتة، ونظرت إلى الأرض شبه الوعرة وفيها الحجارة، وكأن رئيس الفريق فهم ما أعني فقال:

– خلال أيام ستسوى هذه الأرض.. وستشق فيها طرقات. صحيح أنها طرق ترابية.. لكنها ستصلح للسيارات من هذا النوع وخاصة بعد أن تروى بالماء.

وأردف الثاني الذي هو نائبه وهو مهندس:

– هناك سنحفر عدة آبار تروي الأرض، ولن يستغرق الأمر أيضاً أكثر من أيام.

وأضاف الثالث:

– انظر إلى هذا المنزل هناك وسط القرية.. إنه سكنك.. وقد كان قبل هذا منزل رئيس بلدية القرية.

وبسذاجة قلت:

– وأين يسكن رئيس بلدية القرية الآن؟

قال:

– الحقيقة أنه لم يعد هناك رئيس بلدية بعد أن تغيرت القوانين الإدارية للمنطقة.. والقرية بكاملها هي تابعة لشيخ العشيرة التي تعيش وراء هذه التلة.

ودهشت.. هل تمشي الأمور هنا الى الأمام أم إلى الوراء؟! كيف تلغى بلدية ويعود النفوذ لشيخ العشيرة؟.. قال:

– هذه العشيرة هي دائمة السكن هنا.. ولو أنها تفضل أن تعيش في خيام وليس في دور سكنية. على أي حال الموضوع لا يهمك.. والمنزل هذا مريح وتتوافر فيه كل الشروط الصحية إضافة إلى أنك تستطيع أن تشرف منه على كل الجهات وليس جهة مشروعك فقط.. بل تستطيع أن ترى منه مضارب القبيلة بكاملها.

ولم أشأ أن أدخل في تفاصيل حياتي المقبلة في المنزل فهذا أمر لا يتعلق بالمشروع.. إنما المهم استفساراتي حول قيام المشروع ونقطة البدء، والتسهيلات المقدمة لي بالنسبة لعملي فيما يتعلق بالعمال والمواد وأوقات العمل ودفع الأجور الخ.....

قال رئيس الفريق:

– تستطيع أن تبقى في الفندق لو أردت ريثما تتم التحضيرات للأرض وبدء المشروع. ولو أننا نفضل أن تستلم المنزل وترتب أمورك فيه وتتعرف

الى الجو من حولك، وهكذا يكون البدء بالمشروع أكثر سهولة بالنسبة لك. وما أن ننتهي من تهيئة الأرض وحفر الآبار إلا ونبذر البذور المحسنة والمخصبة التي ستقوم عليها التجربة.

وأوشكت أن أقول له إن البذور ليست معي عندما قال:

- على أي حال ستصل الدفعة الأولى من البذور بعد ثلاثة أسابيع.

إذن.. فهو مطلع على كل مراحل المشروع وهو الذي سيستلم البذور.. ومهمتي أنا ليست إلا تنفيذية فقط، قلت له:

- لكني أحتاج إلى مخبر صغير ولوازم لفحص البذور.. ومكتب لاستقبال العمال والزائرين.

قال رداً عليّ من حيث انتهيت:

- أي زوار وأي مراجعين؟ أنت غير مسؤول عن أي شيء من هذا القبيل.. وزرع البذور سيتم سريعاً بعد أن نستلمها ونأتي بها خلال يوم أو أكثر. أما بالنسبة للمخبر فأعتقد أن أي غرفة من مسكنك يمكن أن تتحول الى مخبر.. وسنزودك بما يلزم. ولكن ما حاجتك الى المخبر؟ نحن سنزودك بكل المعلومات اللازمة عن التربة لو أردت وهي جاهزة لدينا الآن.

قلت متحيراً ومغتاظاً الى حد ما:

- أعني التحاليل والفحوصات إثناء المشروع لا قبل البدء به.

قال وهو يضحك:- وهذه أيضاً سنقوم بها نحن.. وما عليك سوى أن تخبرنا بعزمك على أي فحوص تريدها.. حتى أن المراقبة الدورية لنمو المزروعات سنقوم بها معاً فما رأيك؟

وأوشكت أن أقول له: إذن.. ما أنا إلا حارس.. أو مراقب.. لكني صمت حتى تأخذ الأمور مجراها.

★★★

حياتي كانت سهلة وبسيطة بمقدار ما كانت شاقة وعسيرة، ففي ذلك البيت الصغير الذي جهز من أجلي كنت أعيش.. فيه كل وسائل الراحة

وأدوات الكهرباء وكمبيوتر أيضاً. ولماذا أحرم من الكهرباء والمحرك الذي يروي الأرض يمكن أن يمدني بما هو مطلوب وزيادة؟ أما الكمبيوتر والانترنيت والفاكس والاتصالات عبر الفضاء فقد توفرت لي لأكون على صلة دائمة بـ (جو) أتلقى منه التعليمات وأخبره عن كل شيء يمر معي. وبما أنه كان العام الأول والبدايات الصعبة فقد كان يوجهني إلى الطرق الحديثة لتنقية التربة، وإزالة الحجارة الصغيرة لو وجدت، وكذلك الأعشاب العشوائية التي تنبت عادة في الأراضي القاحلة. ولماذا كان يشدد عليّ ألا أترك أي جذر لأي نبات صحراوي، وأنه يجب أن تُقلب التربة عدة مرات بل أن نرويها بالماء الذي أذيب فيه ذلك المحلول السري؟ لا أدري.. إنه في الواقع أكثر من محلول.. وبنسب معينة يجب ألا نتجاوزها لا قليلاً ولا كثيراً. هذه الأسئلة التي اكتشفت فيما بعد أنها أسرار لم أكن اسألها لجو رغم أنني زراعي متخصص.. لماذا؟ لا أدري أيضاً.. لعلي كنت أظنه مشروعاً عادياً لا أكثر، وأن هذه التوجيهات لابد منها لهذه الأرض بالذات.. و(جو) لم يفكر بأن يعطيني سر ذلك المحلول.. ولا وجدت تركيبه الكيَماوي في تلك الأوراق التي حملتها معي.

كان ر. ال (جو) وهذا ما سأسميهم بعد الآن، كانوا يعدون المحلول بحذر شديد ويوزعونه على التربة بحذر شديد أيضاً، ويقيسون كل شبر من الأرض قبل أن يسقوها، وما إن ينتهوا حتى يجمعوا الأوعية التي استخدموها ويأخذوها معهم، ويتحاشون أن يوجهوا لي أي سؤال، أو أن يشاركوني فيما يفعلون وكأنما لا علاقة لي بالأمر. وظننت لغفلتي أن هذا مزيد من المساعدة لي، وأنهم يوفرون علي جهداً كبيراً، أو أنهم لاختصاصهم في هذا العمل قادرون على أن يؤدوه ببراعة وإحكام.

وخلال أسابيع، وبعد أن نظفت الأرض من كل ما فيها من حجارة وجذور، وسقيت بذلك المحلول، أخذوا صوراً للأرض بتقسيمات هم وضعوها

حسب اتجاه الريح أو الشمس، وحتى قربها من أنابيب السقاية والرش فيما بعد. وكلفوني أن أبعث بهذه الصور الى (جو).. ولم أجد لذلك مبرراً فماذا تعني تلك الصور لأرض سويت وعدلت وسقيت لا غير؟.. وقد نفذت ما طلبوه مني بعدم اكتراث لأني لم أعثر له على تفسير.

★ ★ ★

أعود الى حياتي في ذلك البيت الصغير على رأس تلة صغيرة تحجب وراءها على مد البصر خياماً لجماعة ظننتهم من البدو الرحل. لكنهم قالوا لي إنهم ليسوا بدواً رحلاً بل سكان قرية صغيرة كانت موجودة فوق التلة وحولها ثم محيت أيام الغزو السوفيتي، وفزع أهلها من أن تكون مزروعة بالألغام ففضلوا العيش في أرض نظيفة من آثار الحرب وفي الخيام أيضاً. أما المدينة الصغيرة التي كانت تبعد عدة كيلومترات عن المشروع فقد كانت طرقها مليئة بحجارة أقرب الى الصخور وغير معبدة وصعب الوصول إليها بالسيارة، وكنت أقصدها بالحصان الذي قدموه لي.. وبسهولة ويسر كنت أصل وكأن الحصان قد اعتاد على هذه الطريق، سواء كنت أقصد البلدة الصغيرة حيث مركز الأبحاث الزراعية والآخر للأبحاث البيولوجية، أو أن أمر على السوق لأشتري ما ينقصني من حاجياتي ذلك أنهم كانوا يزودونني بكل شيء. وفي المقهى الصغير الوحيد كنت أحياناً أتناول كوباً من الشاي أو فنجاناً من القهوة، ويمر الناس أمامي بثيابهم التقليدية ولحاهم وعمائمهم، أما النساء فلا تمر إحداهن إلا من بعيد مثل ظل قاتم وهي ملتفة بعباءة سوداء وأحياناً زرقاء.. تسرع في مشيتها وكأن أحداً يريد أن يستوقفها. وبما أنني لم أكن بعد قد تعلمت لغتهم فلم أكن أفهم أي كلمة مما يقولون.. لكنني كنت أشعر أنهم يتكلمون عني.. ذلك من خلال نظراتهم أو إشاراتهم لي.. ولم يحاول أحد منهم أن يتقرب مني.. أو يلقي إلي بكلمة سوى عبارة (السلام عليكم) بلغة قالوا لي إنها العربية.. ولأنهم مسلمون يعرفون قليلاً

منها عن طريق القرآن.. وبما أنني كنت أشعر بالضجر والصمت من حولي يزعجني فقد كنت لا أبقى في المقهى إلا قليلاً، ثم أنصرف، حتى كان ذلك اليوم الذي لا أنساه أبداً فقد برز أمامي فجأة (موهاد) رفيق القطار.. وكأن أحداً قد دله عليّ، فقد دخل إلى المقهى قاصداً طاولتي كما لو أنه وضعني بيده أمامها. ارتمى فوق الكرسي الثاني الذي تضمه المائدة، ومسح على رأسه ووجهه وتنهد وهو يمد رجليه ليشعر براحة بعد تعب، وقال:

– ها قد عثرت عليك أخيراً.. ألم أقل لك إننا سنلتقي.

★ ★ ★

وطال مكوثي في المقهى هذه المرة.. وتناولنا أحاديث شتى وشعرت كما لو أنه صديق حميم لي أمام هؤلاء الناس الأغراب تماماً عني.. أو كأن رابطة خفية تجمعنا.. ليس لأنه يحدثني بالإنكليزية بل لأن تلك الذكرى لتلك الليلة نسجت خيوطاً خفية شدتني إليه.. ولم أجد نفسي إلا وأنا أحدثه عن التجربة التي جئت الى هذه البلاد من أجلها.. كما زودته بعنوان المكان الذي أقيم فيه.

الفصل الرابع:

# حب غير منتظم

وجاءت الساعات الحاسمة في بذر البذور في الأرض وكانت عملية غاية في الدقة والسرعة وشيء من السرية أيضاً.. فقد نزل الفريق في الأرض منذ الفجر، ولا أحد كان قد استيقظ، أو حتى انتبه من الناس الذين يمرون قرب الأرض.. وأنا كنت لم أستعد بعد لمشاركتهم.. جاؤوا بأوعية مبردة ومحكمة الإغلاق.. وبقفازات سميكة.. وبحسابات معينة للمسافة بين بذرة وأخرى أخذوا يوزعونها وهم صامتون كأنما هم يدفنون أناساً أحياء.

كل هذا لم يلفت نظري إلا قليلاً.. اعتبرته جزءاً من برنامج عملهم أو من آلية العمل نفسه في هذه المناطق التي لا يرعاها أحد ولا يستفيد منها أحد، لكن الأهالي لا يريدون أن يغيروا فيها. وبعد أن انتهوا من عملهم وكأن حملاً ثقيلاً انزاح عن أكتافهم قدموا لي برنامجاً حصرياً بالأوقات التي يجب أن تتم فيها السقاية دون أن يخبروني أنهم هم الذين سيسقون الأرض أيضاً.

إذن فما هو عملي على وجه التحديد؟.. قالوا لي إن أي علامات على النمو يجب أن أسجلها، أو أن ألتقط صوراً لكل شبر من الأرض التي تُنبت. وأظهرت استيائي دون غضب.. فهم يساعدونني أو يسهلون عليّ المهمة التي جئت من أجلها.

ومضت أسابيع لم ألاحظ فيها أي نمو لأي بذرة.. وكنت منشغلاً بمطالعة الأوراق التي أرسلها (جو) وبحياتي المعيشية التي توافقت معها بعض الأحداث.

بالنسبة للأوراق فقد اكتشفت أن محاليل من نوع غامض تدخل في

تركيب مياه السقي، ولم أعطِ الأمر اهتماماً كبيراً لأن هذه المحاليل سيأتي بها فريق العمل المكلف بالمؤسسة التي يدخل المشروع كله في نطاقها، أو هي التي أُسست من أجله، وهذا ما فهمته فيما بعد.

وعن حياتي المعيشية فقد كانت لا تخلو من بعض الصعوبات كخدمة المنزل، أو شراء الحاجيات الضرورية من مركز البلدة لأن القرية بعيدة نسبياً عني وعليّ أن أقطع الطريق من خلال الخيام حتى أصل إليها.

وفي فجر أحد الأيام ومع الغسق فتحت نافذتي على حركة غير اعتيادية بين الخيام.. لمحت أشخاصاً ينكبون على حوض ماء ثم يفرشون الأرض بملاءة، ويقفون صفاً واحداً ويقومون بحركات منتظمة.. وسمعت تمتمة وأصواتاً بإيقاع واحد، وعندما فرغوا مسحوا فوق وجوههم وقالوا آمين، ففهمت أنها صلاة.

وبعد ذلك برزت صبية أمام الحوض وكشفت عن وجهها وساقيها وذراعيها وأخذت تغرف براحتيها من الماء وتتمتم. الحقيقة لم يلفت نظري مشهد الفتاة لأني رأيته من قبل فيما قام به الرجال، ولكن لفت نظري الفتاة نفسها فقد كانت مثل عود من العنبر أو تمثال من الشمع الأسمر الوردي، وحبست أنفاسي وكأنها تسمعني وشعرت أنني لص أسرق النظر إليها.. لكن هذا الإحساس بدأ يخف بعد كل فجر كنت أستيقظ فيه خصيصاً لأراقبها دون أن تشعر بي. وفجأة لمحتني فاضطربت، وأكملت اغتسالها وصلاتها بسرعة ثم اختفت. وما هي إلا دقائق حتى سمعت نقراً على باب بيتي بالأصابع.. لماذا لم يستعمل الطارق الجرس؟! المهم أنني فوجئت إذ فتحت الباب بالفتاة أمامي ملتفة بعباءة سوداء لا يظهر منها إلا قسم من وجهها.

دخلت الفتاة الى بيتي وأخذت تنظر بدهشة الى كل شيء فيه.. وفي المطبخ بدت ابتسامة غامضة على وجهها، ثم أخرجت من تحت ملاءتها

السوداء أقراصاً صغيرة مصنوعة من الدقيق أو الذرة، وقسمت القرص الى نصفين ناولتني أحدهما. ولما كانت المفاجأة تستولي عليّ فلم أبادر الى تذوقه، فرفَعت القسم الثاني الى فمها وهي تضحك.. وبدت أسنانها اللامعة البيضاء مثل اللآلىء وكأنها تطمئنني. تذوقت القرص، فإذا هو حلو المذاق لذيذ الطعم.. فأكلنا.. وضحكنا ثم سارت الى جانبي نحو غرفة المعيشة، ونظرت الى الفوضى فيها، ولم تلبث أن خلعت ملاءتها فبدا جسدها المتناسق الجميل.. وأخذت تنفض الغبار عن الكتب وتعيد كل شيء الى مكانه وكأنها وضعته من قبل بيدها. نظرت الى أرض الغرفة ثم أسرعت الى الحمام فأتت بفوطة مستعملة غمستها في الماء، وانحنت تنظف الأرضية بمهارة وإتقان، وأنا أتأمل انحناءة جسدها البديع بذلك الثوب البسيط من الكتان الأزرق.

عندما انتهت وقفت أمام النافذة وتنهدت ثم خاطبتني بلغة الإشارة أنها تسكن هناك.. في هذا التجمع للخيام.. وأكدت على خيمة معينة موصولة ببناء طيني صغير.. ثم دقت على صدرها ونطقت (آيشا)، وردت ذلك عدة مرات وكأنها تعرفني على نفسها ومسكنها.

لما خرجت غادرني عطر خاص من نوع نفاذ لم أكن قد انتبهت له.. هل هو عطرها أم عطر الأنوثة الذي حرمت منه في هذه العزلة؟!.. المهم أنها تركت أثراً حاراً وجارحاً في نفسي.. تمنيت معه أن تظل في البيت، وتنهدت على أمل أن تأتيني في اليوم التالي.. وبالفعل أتت وقد ارتدت ثوباً بلون الخمر انكشف عن جزء من صدرها الأسمر الفتي.. وما كلمتني بل قامت بواجبات أكثر في البيت ثم قالت قبل أن ترمي برشاقة ملاءتها السوداء على جسدها:

- آيشا.. موهاد.

تزعزع كياني كله.. إذن فهي من قبل (موهاد).. بل لعلها من أسرته.. أو ربما تكون حبيبته!!! شعرت بانقباض في صدري وبما يشبه الغيرة.. لا.. لا

علاقة لها بموهاد، وإنما جاءت من أجلي أنا. ولكن كيف أعقد صلة معها وأكلمها وهي لا تعرف إلا لغتها؟ هل أتعلم لغة هذه البلاد حتى أتفاهم معها؟.. ذلك يقتضي وقتاً طويلاً.. إذن لابد من المصارحة مع (موهاد).

★★★

في البلدة الصغيرة ومن أجل التسوق صادفت (موهاد).. بل كان كأنه ينتظرني.. بادرته بالقول: (آيشا). فابتسم وظهرت أسنانه البيضاء، وقال:

– كنت أعرف ذلك.. لكن لا تظن أنني أرسلتها لك.. هي التي راقبتك وعرفت تفاصيل حياتك وأرادت زيارتك. انتبه.. لو أن أحداً من أهلها وعشيرتها لاحظ ذلك لوقعت في مشكلة كبيرة، ولتعرضت ربما للقتل.

أصابني فزع شديد، وقلت:

– ولماذا أتت إلي إذن.. أمن أجل أن تورطني؟

قال:

- لا.. ليس كذلك.. في مثل هذا الوقت لن يكون أحد في الخيام.. كلهم يذهبون للعمل ولا يبقى إلا الصغار والنساء.. وهي قد تدبرت أمرها بحيث لا ينكشف سرها.

قلت:

– وما العمل؟

وكأنني أنا الآخر أريد أن أتدبر أمري، قال:

– أتركها تأتي وتتردد كما تشاء.. ولن يحصل شيء. ولكن إياك أن تخبر أحداً من هؤلاء الذين يترددون الى بيتك.

قلت:

– ومَنْ تقصد؟

قال:

– هؤلاء الرجال الغامضون التابعون للمؤسسة الزراعية.. إنهم

مشبوهون ولا أحد يريد أن يكلمهم أو أن يتقرب منهم.. إنهم يعاملون السكان بفظاظة وغلظة وكأنهم يطردونهم من حولهم.. ويحيطون أنفسهم بالأسرار.تصور أنهم يخدمون أنفسهم بأنفسهم.. ولم يدخل أي خادم الى مخابرهم.. إنهم مختلفون عنك كثيراً.. ولا نعلم إن كانوا استأجروا الأرض التي تعمل فيها أنت أو اغتصبوها.. على أي حال هذه أرض بوار ولا خير فيها. هل تظن أنهم سيبقون فيها حتى تحيا من جديد؟ بل لعلهم صادروا الأرض.. تلك البور.. فهل تظن أنهم سيردون إليها الروح ويبعثون فيها الحياة؟ يقولون إنها ستنتج مقداراً هائلاً من الحبوب ذات القدرة العالية لأنها مخصبة أو محسنة وراثياً.. وإنها ستطعم أهل المنطقة كلهم.

ويضحك بحرارة ثم يضيف من جديد:

– علينا أن ننتظر.. فماذا لو انتظرنا؟!.. إن وعوداً كثيرة تقطع لأهل هذه البلاد ولا يُنفّذ منها شيء. وها أنت ترانا كما نحن.. لابد أن آخذك في جولة الى بعض القرى والبلدات الفقيرة الى الماء والغذاء لترى بأم عينك.. هذا عدا عن الألغام ومخلفات الحرب مع الشيوعيين من دمار وتهجير وقنابل قابلة للتفجير.. هذه البلاد دخلت عليها لعنة الكفار وتحتاج إلى أزمان وأزمان حتى تعود كما كانت.

قال هذا ثم جمع يديه الى صدره، وأخذ يتلو صلاة معينة، ويقرأ عبارات معينة ذات جرس موسيقي عذب أظنها من القرآن، ثم أضاف:

– لكن المأساة الكبرى فيما حل بتلك القرية الصغيرة حيث بيتك الآن.. لقد هجرها أهلها بعد سلسلة من الزلازل العنيفة التي اعتبروها إنذاراً بالشؤم، إضافة الى شح المياه والموارد.. هجروها الى تلك الخيام في السهل كما ترى، ولم يعد فيها عرق ينبض لأنهم هدموها عن آخرها على أمل أن يعودوا إليها ليبنوا فيها مساكن حديثة ومتينة.. ثم جاءت أحداث اخرى أكثر فظاعة وقسوة.. الاحتلال الأمريكي والفوضى الضاربة في البلاد.. والفقر..

والخوف.. والتهديد بالتدمير حتى للجبال فكيف بالتلال والمرتفعات؟! ثم مَنْ سيبني لهم؟ أين العمال ومواد البناء؟ ربما اتهموهم بالعمالة أو الخيانة، مع العلم أنهم يحتفظون ببعض الأموال عندما كانت هذه سهول تزرع بالحشيش فيبيعونه الى المهربين، ويقبضون أثمانه.. ليس بالعملة المحلية ولا بالدولار.. بل بالذهب.. ثم أصبحت حالهم كما ترى.

ويبدو أن أسئلة كانت تطل من عينيّ، فقال:

- وأسرة (آيشا) من بينهم.. أبوها كما تقول هي شيخ العشيرة أو المسؤول عن هذه الجماعة كلها. وهو رجل متنور ومتعلم يعرف الروسية والإنكليزية. لابد أن نزوره يوماً ما.

ما إن صمت موهاد وأنهى أحاديثه الغريبة عني الى حد البكاء حتى وجدتني وكأنني صورة توضع في إطار لا يناسبها.. صورة لإنسان من عالم آخر. لعلي أصبحت شبحاً.. أو طيفاً.. أو شيئاً غير حقيقي ولا مرئي.. لكن الإطار واضح تماماً.. محسوس ملموس.. بل هو الذي يدل على التناقض بين الصورة وإطارها.

وأردت أن أختم لقائي مع موهاد لأفكر بكل ما قاله عندما ضحك مستدركاً:

- وحصانك.. ما شأنه؟ أنا لا أراك تتجول معه في هذه البراري!

تنبهت كمن أخرج رأسه من ماء بارد وقلت:

- وكيف لك أن تراني في كل أوقاتي؟!

أجاب ممازحاً:

- هذا سر.. لن أكشف لك عنه.

قلت مغتاظاً:

- لا.. أرجوك.. لم أعد أحتمل مزيداً من الأسرار هل أنت تراقبني؟ ومن أي مكان تفعل؟ هل كلفك أحد بالكشف عن أموري أم أنك تحرسني مثلاً؟

قال ضاحكاً وقد اقترب مني ومد يده مصافحاً:

– لا.. يا فريد.. نحن أصبحنا أصدقاء.. ولن أغدر بك.. ليس من عاداتنا أن نشي بأصدقائنا أو نتجسس عليهم أو نسبب لهم أي أذى، ثم إنك لا تفعل شيئاً يقتضي الشك فيك.. أنت موظف.. لنقل كذلك.. بل أنت مندوب عن هذه المؤسسة الزراعية الخبيثة.. والمسؤولية تقع عليها لا عليك.. بل على مَنْ يقف وراءها. وإذا كان هناك حساب فما أظن أن الأذى سيلحق بك.. وإذا وقع أي أذى لا سمح الله فسوف ندافع عنك أنا وآيشا. هل تظن أن آيشا ستتخلى عنك بسهولة؟ إنها تراك مثل ملاك هبط من السماء.. وهي ترصد تحركاتك كلها.

فطنت للأمر وقلت:

– إذن.. فهي التي تزودك بأخباري.

قال:

– الحقيقة أن هناك شيئاً من ذلك.. أما الباقي فأنا أستنتجه بنفسي.. أو ألاحظك عندما تذهب الى سوق البلدة. أنت إنسان طيب يا فريد.. ولا تستحق أن تكون من أولئك القوم الذين يحملون إلينا القتل والدمار والخراب.

تنبهت الى أنه ناداني (فريد) للمرة الثانية فقلت:

– إن اسمي فرانك وليس فريد.

قال:

– لا فرق.. لا فرق.. ولا تعترض على اسم له مدلوله عندنا ومألوف الى حد ما.. ومعروف.. أليس هذا أفضل لك؟ ثم إن ملامحك وتصرفاتك لا تشبه ملامح أولئك الشقر ذوي العيون الزرقاء الذين يقومون بالدوريات بقسوة وفظاظة. هيه.. ماذا تقول؟ هل أنت محارب أو أن لك صفة مقاتل؟ انظر.. ها أنت ترتدي ملابس تشبه ملابس طلاب الجامعة أو الذين دخلوا المدنية من أبناء قومنا. لا تنظر إليّ هكذا فأنا شبه مشرد.. ألا أشبه شباناً بعينهم في

بلادكم يخرجون عن المألوف؟ هذا شعري طويل.. وها هو قميصي مفتوح عند الصدر. انظر الى هذه الميدالية في عنقي.. لن أبيعها بمال الدنيا ولن أتخلى عنها.. إنها (الأيقونة) التي تحفظني.. هذا ما تسمونها.. أما نحن فنعتقد أن في مثلها ما يكتب للإنسان النجاة من أي أخطار.

قلت وقد أثار فضولي بعد أن انحرف الحديث بنا إلى مواضع أُخرى:

– وماذا كتب عليها؟ أخبرني.

قال:

– مكتوب عليها آية من القرآن الكريم.. هي حرز لكل من يحتفظ بها.. وإذا ما قبّلها صباح مساء فلن تقترب منه الأفاعي أو الوحوش أو الحيوانات المؤذية. لابد أن أعرفك يوماً بديننا.. إنه دين التسامح والسلام والإيمان الراسخ بالله والتوكل عليه. صحيح أنني لست غائصاً فيه حتى العنق.. لكن مبادئه الأساسية هي التي توجه حياتي وتحميني من كل أذى.

تذكرت تلك القلادة المعدنية التي أهداها إليّ (جو) واستغربت أنني نسيتها تماماً أو لعلي فقدتها ربما. وتوقف الحديث بيننا.. وأنا أحس أنه يجب أن يزودني بمعلومات أكثر عن (آيشا)، وكأنه فطن لذلك فقال:

– آيشا فتاة مؤمنة لا تنقطع عن الصلاة.. وخاصة صلاة الفجر.. وهي مسلمة حقيقية لأنها تساعد الآخرين كثيراً.. ولا تبخل بما عندها للفقراء والمحتاجين. تصور أنها تنفق كل ما تحصل عليه من والدها على الأولاد الذين تفجرت بهم الألغام. إنهم في ملجأ صغير في البلدة، وهي التي تجمع لهم المعونات وتسيّر شؤون الملجأ بصمت.

قلت بشكل غبي لا يتناسب مع روح الحوار:

– إذن.. فهي تذهب إلى البلدة باستمرار.

قال:

ـ طبعاً.. لكن تتعمد أن يكون ذلك بالخفاء حتى لا يشعر بها أحد

فيؤذيها.. إنها شابة.. وجميلة جداً.. أليس كذلك؟

وأخفيت ابتسامتي وهو يلمس هذا الوتر الحساس في نفسي وقلت:

– أتظن أنها تمانع لو ذهبت معي إلى البلدة؟ أقصد لو ذهبت معها؟

انتفض وقال:

– إياك أن تفعل ذلك.. سوف يظنون بها الظنون ولن تسلم من غضبهم، حتى أولئك الذين لا يمتون إليها بصلة أو قرابة.. إنها التقاليد يا صديقي.. التقاليد القاسية.. والعادات المتبعة في فصل النساء عن الرجال، ثم إنها ابنة شيخ عشيرة والطامعون بها كثيرون.

وساد الصمت بيننا.. حتى قال موهاد مودعاً:

– عندي مهمة عسيرة هذا الأسبوع.. وأرجو لو عدت سالماً أن ألقاك في بيتك.. فما رأيك؟

قلت:

– في أي وقت تشاء تستطيع أن تأتي إليّ.. لكنني أنا الآخر لدي مهمة صعبة هذا الأسبوع.

وافترقنا.

الفصل الخامس:

# رياح من كل اتجاه

ذلك اليوم لا أستطيع أن أنساه.. ما كنت أتوقع أن تأتي (آيشا) وأنا على استعداد لمغادرة منزلي عندما جاءتني لاهثة وكأن أحداً يطاردها. أشرت إليها بيدي بسؤال استفهام أن ماذا؟ لم تجب بل دخلت الى المنزل مستعجلة ونظرت الى المطبخ ثم أسرعت لرفع سلم صغير وهيئته للصعود إلى السقيفة الصغيرة حيث أنابيب محاليل من أنواع شتى. وعندما نظرت إلى أن السقيفة ممتلئة وليس فيها موضع قدم انزلقت عائدة فسقطت على الأرض وصرخت صرخة مكتومة ثم وضعت يدها على رجلها. اقتربت منها وقد نسيت نفسي لأرفعها وآخذها إلى سريري فعرفت أن رجلها كسرت، ولم أجد مفراً من أن أمزق ملاءة سريري لأضمد لها قدمها التي بدأت تنتفخ.

يا إلهي.. للحظات ووجهي قرب وجه (آيشا) شعرت بعاطفة غريبة نحوها.. كأنما كلانا أسير بطريقة ما.. ورأيت دموعاً في عينيها.. غزيرة ومتألقة مثل حبات لؤلؤ. ما إن ضغطت على قدمها لأتأكد من الضماد حتى لفظت دون وعي منها كلمات باللغة الفرنسية. يا إلهي.. الفرنسية!! من أين ستحصلها؟! يمكن أن تكون قد التقطت كلمات بالإنكليزية.. وربما بالروسية منذ أن كانت طفلة وتم اقتحام الروس لبلادها.. أما الفرنسية.. فلابد أن هناك سراً وراءها!!

وأشرت لها أنني أريد الخروج.. فاجأتني بالموافقة. خرجت وكأن جبلاً يجثم فوق صدري.. كيف سأنقلها الى أهلها؟ ربما قتلوني.. وكيف أتركها في بيتي وهذا دليل أكبر على اتصالها بي والنتيجة أسوأ!! لابد إذن من العثور على موهاد حتى أتخلص من هذه الورطة.. ولكن أين سأجده؟! ليس

له عنوان.. ولا أعرف له مقراً.

خرجت هائماً على وجهي لا أرى طريقي حتى وصلت إلى الفندق الصغير بالبلدة.. سألت صاحب الفندق عن موهاد، فهز كتفيه متعجباً ونظر إليّ بارتياب. جلست في المقهى قرب الحديقة الصغيرة، وطلبت فنجاناً من الشاي.. جاءني خادم عجوز وقدم لي مع الشاي فطيرة جافة بلون أسمر، تجرأت وسألته عن موهاد، فأجابني وهو مذعور:

- في السجن.. في السجن.. أمثاله يجب أن يسجنوا.

قال ذلك بلغة إنكليزية ضعيفة ثم اختفى. أي مشكلة وقعت فيها.. وكيف الخلاص؟ هل أترك (آيشا) ممددة في بيتي وأتخلى عنها بهذه السهولة؟ على أي حال فإن أي طريقة ستخرج بها من منزلي ستعود عليّ بالأذى. إذن فلأتصرف.. لحقت بالخادم العجوز، وقلت له بصوت منخفض إن فتاة مكسورة القدم في بيتي.. وأنا أريد أن أنقلها ولا أستطيع ذلك وحدي. نظر الى كتفيَ والى جسدي كله.. ثم قال وكأنه غير مقتنع أنني لا أقدر على حمل فتاة:

- حسناً.. تدفع لي بالدولار.. ما رأيك؟

أخرجت من محفظتي بعض الدولارات ومددتها إليه، فاختار ورقة العشرة وأخذها برفق، ثم وضع يده على ظهري إشارة الى بدء الصفقة.

ما إن مشينا باتجاه منزلي وقد اقتربنا منه حتى سمعت صوت انفجار يصدر من المنزل. يا إلهي ماذا جرى أيضاً؟.. وآيشا هل أصابها أذى؟.. هل هو هجوم على منزلي أم ماذا؟

وقفت كالمذهول وأنا أنظر الى سحابة الدخان المتصاعدة من المنزل، بينما العجوز بجانبي قد اختفى دون أن ألحظ هروبه. تراجعت أقدامي خطوات الى الوراء دون وعي مني.. هل سأهرب أنا الآخر.. وأترك كل شيء لمصير مجهول؟

نفضت رأسي كمن ينفض عنه الغبار مسترجعاً وعيي.. وقررت أن أعود

الى البيت مهما كانت النتائج لأن محاولاتي في التهرب فشلت.. ولن أترك تلك الفتاة وحدها جاثمة هناك مثل طائر مقصوص الجناح مكسور الساقين.

ما إن اقتربت من منزلي حتى أسرعت مثل مجنون وأنا أصرخ: آيشا.. آيشا. وعندما اقتحمت المنزل لم أجد أحداً.. كيف خرجت (آيشا)؟! مَنْ أنقذها؟ وما سبب هذا الانفجار؟!! أما الدخان فقد كان منبعثاً من السقيفة حيث وضعت المحاليل جميعاً. كتبي وأوراقي كلها كانت مكسوة بطبقة من السواد.. لا يهم.. لتذهب كل أوراقي الى الجحيم.. ولكن أين (آيشا)؟!

وهجمت الدموع الى عيني.. وضربات قلبي العميقة تنذرني بأني سأسقط في هاوية. لم أدر ماذا أفعل وبمن أستنجد.. فتحت النوافذ والأبواب كلها لتخلص من الدخان الخانق عندما سمعت خطوات ورائي وسعالاً يصدر عن رجل. توجست شراً.. وبدا استعدادي لمواجهة أقسى الظروف، فبهتُ أنه موهاد.

سار نحوي بخطى هادئة واطرق برأسه قائلاً:

– لقد أنقذتها.. كان هذا واجبي تجاهك كما هو تجاهها. ولكن قل لي ما هي هذه المواد التي تنفجر هكذا؟

نقلني فجأة وبقوة الى السؤال الذي لم اسأله لنفسي فقلت:

– لا أدري.. لعلها محاليل تركها الخبراء.

وأحسست أن جوابي غبي الى حد كبير.. فما هو موقعي إذن؟ هل أنا حارس أو وسيط فقط؟ قلت لموهاد بانكسار:

– لابد أن أعرف.. لابد.. ولكن الآن أين هي (آيشا)؟

أجاب:

– هي بين أهلها.. وقد أوصتني أن أطمئن عليك. ذلك قبل الانفجار.. فما بالك الآن؟ وقد تكون سمعت الانفجار وظنت أنك داخل المنزل. سأنسحب يا صديقي.. ولكن عليك أن تكون حذراً.

من أي شيء يحذرني؟ من استقبال (آيشا)؟ من طبيعة المحاليل التي عندي؟ من تصرفي أثناء هذه المحنة؟

ولم يترك لي مجالاً لنقاش بل انسحب بخفة فهد.. وبسرعة أرنب.

★ ★ ★

تلك الليلة التي أمضيتها وحيداً في منزلي كانت من أسوء أوقاتي.. أو لعلي ظننتها كذلك لأنني لم أتوقع ما هو أسوء منها. لم أنم ولم ألتفت حتى الى غرفة نومي.. كنت أدور في أرجاء البيت أجمع حطام الأشياء التي أتلفها الانفجار، وانفض الغبار والسواد عن موجودات المكان، وإذ أتحرك بعصبية زائدة بدوت وكأنني روبوت مكلف بهذه المهمة لا بل مبرمج على ألا أقوم بسواها.

أما عقلي فقد كان على نقيض جسدي.. وكأنه جهاز لاقط قد انفلتت كل ضوابطه وتعليماته.. وراحت الأفكار تتزاحم فيه مثل خلية نحل مرتبكة. وأخذت ذكريات الماضي بتَفاصيله الدقيقة تقصفني بأسئلة لا حصر بل لا نهاية لها: لماذا استسلمت لرغبة (جو) بهذه البساطة؟ ما الذي أتى بي إلى هذه البقعة التعسة من العالم؟ هل هو قدري أم أقدار الآخرين الذين تقاطعت مصائرهم مع مصيري المجهول؟ ولكن أليس الأجدر بي الآن أن أتساءل أولاً عن سر تلك المحاليل التي احتضنتها في جوف بيتي دون أن يشدني الفضول للكشف عن هويتها.. لماذا حاولت (آيشا) الوصول إليها قبل أن تقع الى الأرض مثل طائر جريح؟

وقفز الى ذهني سؤال لم أكن قد طرحته على نفسي من قبل: هل أنا فعلاً غبي؟!.. لابد أنني كذلك.. وإلا لماذا كنت أكتشف غباءً ما يستبد بي في لحظات هي مفاصل بين أحداث تجري واخرى تأتي؟

نفضت شظايا الزجاج التي تساقطت فوق ما تبقى من الملاءة الممزقة كنفسي الآن، ونفضت معها تلك الأفكار من رأسي قبل أن تستولي عليّ.. لا.. أنا لست غبياً وإلا لما حصلت تعليمي الجامعي.. ولما تعلمت أكثر من لغة

غير اللغة الإنكليزية التي أتحدث بها.. أو ربما لما أتقنت رياضة الفروسية أو لعبة الشطرنج أو استخدام الكمبيوتر. إنها براعتي إذن.. تلك التي راهن عليها (جو).. أجل إنها براعتي تلك التي تجعلني لا أفهم خبث الآخرين أحياناً.. ولعلي أكتشف الآن أنني شخص وحيد الاتجاه.. نعم.. أنا وحيد الاتجاه.. فإذا ما اقتنعت بفكرة ما سرعان ما تصادرني ويصبح البحث عن بديل لها أمراً عسيراً.

أوشكت على البكاء عندما اكتشفت أعماقي فجأة، وشعرت من جديد وكأنني أسقط في هوة بئر عميقة لا قرار لها، وإذا بي أسمع نقراً خفيفاً بالأصابع فوق بابي.. استنفرت.. إذ من سيأتي إلي في عمق هذا الليل الذي بدا لا نهاية له؟.. هل هي (آيشا) التي لم تجرب جرس الباب ولو لمرة؟.. ولكن كيف ستأتي بساقها المكسورة مع الظلام؟ لابد أنه زائر آخر.

عادت الأصابع المجهولة تنقر على الباب، وما إن فتحته حتى صافح عيني وجه رئيس مجموعة الخبراء الذين أعمل معهم.. قلت مرحباً وفي الوقت نفسه مستغرباً هذا القدوم المباغت:

– هذا أنت أيها الرئيس.. تفضل.. هل من أمر طارىء حصل لا سمح الله.

نظرت الى وجهه فوجدته ممتقعاً ومصبوغاً بالصفرة، أجابني بحدة:

– بل إن الله قد سمح.. وأنت السبب.

قلت مندهشاً:

– تقول أنا.. ما الذي حدث.. وبماذا تسببت؟

ابتلع جوابه مع قدر كبير من الغضب وهو يتأمل آخر بصمات الانفجار الموجودة في أرجاء الغرفة، وما لبث أن أسند جسده الى الحائط، ورمى برأسه الى الخلف وقال:

– كان عليك أن تكون حريصاً.. كيف تسمح لنفسك بإهمال تلك المحاليل الثمينة التي خبأتها الشركة لديك حتى تتسبب بانفجار لم يُضع فقط

محاليلنا النادرة تلك، بل أضاع هيبتنا بين هؤلاء القوم من حولنا، كما جذب نظرات الريبة والشك نحونا.. ومن يدري لعلك بتصرفاتك هذه ستفسد علينا تجربتنا الرائدة.

قلت غاضباً:

– يا سلام.. هل أنا السبب في هذا كله.. نظرات الريبة والشك.. وضياع التجربة.. وفقدان المواد الثمينة؟!.. لماذا لم تحاسبوا أنفسكم على أنكم وضعتم لدي مواد قد تنفجر وقد تودي بحياتي ربما؟ ثم إن هذا منزلي الذي لا يقطن فيه سواي.. مما يجعلني أنا المرشح الأول لكي أكون في مركز دائرة الشك والريبة من قبل سكان المنطقة.. ثم أخبرني كيف يمكن لتلك السوائل أن تنفجر إذا كانت مجرد محاليل حيوية؟!.. هيه.. قل لي.

ولعله أدرك أن حواره معي قد يورطه أكثر مما ينقذ الموقف الذي بدأ يتأزم بيني وبينه، فمشى باتجاه الباب الخارجي وهو يقول:

– سيأتي غداً العمال لإصلاح أضرار المكان..

ثم استدار نحوي ورشقني بنظرة خبيثة وأضاف:

– حاول ألا تغادر المنزل قبل أن يأتي خبراؤنا إليك بعبوات جديدة من المحاليل بدل تلك التي خسرناها.

واختفى من أمامي على الفور بينما ظل صدى صوته ممتزجاً بصفعة باب قوية خلفها وراءه يترددان على سمعي.

تلك الليلة السوداء التي أمضيتها يتيماً إلا من السواد والأسرار.. لم تكن مثل ليال كثيرة عشتها أو ربما سأعيشها.. لقد تحولت في أعماقي النهايات الميتة للأشياء الى نقطة انعطاف حقيقية. (آيشا).. السقيفة والانفجار.. وتلميحات موهاد.. وصدامي مع رئيس الفريق.. وخيباتي مع انكساراتي.. وماضيّ ممتزجاً مع حاضري.. كل هذا وغيره كان سبباً لقراري الذي اتخذته ومبرراً لما سأقوم به فيما بعد.

★ ★ ★

الفصل السادس:

# السر الغامض

جاء الربيع.. وبدأت الأرض التي زرعت بالقمح تهتز بلونها الأخضر الزاهي الذي ما لبث بعد اشتداد الحر أن تحول الى لون ذهبي بلون الشمس.. تلك كانت البذور المحسنة وراثياً.. ولابد أن أحدثكم عنها.. إنها بذور جرى التحكم بجيناتها الوراثية بحيث تعطي مردوداً كبيراً ومتميزاً من حيث المحصول.. وهذه البذور تمتلكها شركات خاصة هي التي تبيعها للجهات التي تريد.. وبالأسعار التي تريد.. لكن هذه البذور لا تطرح محصولاً يمكن الإفادة منه من حيث زرعه من جديد.. بل هي تزرع لمرة واحدة وتعطي محصولاً واحداً مما يضطر المزارعين إلى أن يشتروا مثل هذه البذور في موسم آخر. وهذا هو المأزق الذي وقعت فيه.. فقد عرفت هذا جيداً.. ووجدت الأوراق الرسمية التي تدل على ذلك.. وهي تجارب عمرها حوالي نصف قرن.. منذ أن ظهرت في الاتحاد السوفيتي سابقاً تجارب (الإرباع)، فقد جاء (لايسنكو) صاحب النظرية الذي نال سمعة عالمية بنظرية هي أن زرع بذور القمح الشتوي قبل الشتاء في الأرض يجعلها أكثر مقاومة للعوامل الطبيعية مما يزيد من خصوبة الموسم.. لكن التغيرات التي حصلت فيما بعد فهي تتعلق بالشيفرة الوراثية للقمح بحيث تجعله ينمو بشكل مطرد وبخصوبة عالية.. ولكن.. لمرة واحدة.

وبدأ سكان المنطقة وخاصة أولئك الذين يعيشون في الخيام يثير اهتمامهم منظر القمح المشرق الذي يمتد على مساحة واسعة من الأرض، وبدؤوا يقبلون وجودنا جميعاً بينهم وخاصة خبراء المؤسسة الزراعية أو رجال (جو) بل يتودون إليهم.. معربين عن آمالهم في أن يشتروا المحصول كله مهما كانوا في ضوائق مالية.. ولو اضطروا لبيع حلي نسائهم.. يريدون أن يشتروا المحصول لا لاستهلاكه أو الانتفاع به بل لحفظه كبذار لمواسم أخرى على مساحات أخرى.. أكبر.. وأكثر صلاحية للزراعة.

فما كان عليّ أن أقول لهم؟ هل أقول لهم إننا نخدعهم وهذه البذور لن

ترمي محصولاً ذا فائدة؟ وكيف اشرح لهم ذلك علمياً وهم على هذه الدرجة من البساطة ومستوى التعليم؟.. لن يدركوا ما سأقوله لهم.. بل سيظنون بي الظنون.. فالبذرة يجب أن تنبت.. وهذا قانون طبيعي. ومن جهة اخرى فسوف أكون بالنسبة للمؤسسة التي أنتمي إليها خائنا لأسرارها التي لم أعرف منها إلا هذا الجزء فقط. أما باقي الأرض والبذور التي دفنت فيها فأنا لا أعرف عنها شيئاً رغم انصرافي ليالي طويلة في الرجوع الى الأوراق.. وفحص المحلول الذي كانوا يسقون به ارض النباتات المجاورة لحقل القمح. كل ما استطعت أن أعرفه من الخبراء أنها بذور لأنواع من الطماطم والملفوف والخيار والجزر الخ.. وهي أيضاً محسنة وراثياً.. وكنت أقول لهم إن بعض هذه الخضراوات تحتاج الى شتول وليس الى بذور.. فكانوا يجيبونني بشكل غامض أو مراوغ بقولهم: وماذا تقول عن البطاطس.. إنها تحتاج الى بذور.. والمساحة الكبيرة زرعت بالبطاطس.. وما البذور الاخرى سوى محاولات جديدة أو تجارب جديدة ربما تنجح أو لا تنجح. لكنهم لم يخبروني عن نوع تلك التجارب وما هي صفاتها الوراثية.. هذه البذور هل هي محسنة أيضاً وما نوع هذا التحسين؟!

إذن.. كان عليّ أن أنتظر.. أن أنتظر.. حتى بشائر الصيف وظهور النباتات فوق سطح الأرض إلى جانب حقل القمح.. وهذا ما لم يحصل.. طمست البذور في الأرض ولم يظهر منها إلا أقسام ضئيلة قاتمة اللون.. وإذا عاينتها أفرزت سائلاً قاتم اللون أيضاً له رائحة خاصة لعلها متشابهة في كل أنواع النباتات. وحاولت أن أركز جهودي على حقل القمح وأتوقع ما سيحصل بشأنه وخاصة أن السكان الظاهرين المخفيين أصبحوا ينفرون مني بعد أن كانوا يتقربون إليّ.

★ ★ ★

قلت إن الوقت هو الربيع ونتائج التجربة الأولى بدأت تتفتح تباشيرها في

الأرض.. لم أر موهاد منذ مدة طويلة، و(آيشا) أيضاً.. وكأنهما اختفيا من حياتي.. تراهما هل أصبحا يخافان أو يتوجسان من الاقتراب مني بعد الذي حصل؟.. لا.. ما أظن ذلك.. بل لعل (آيشا) لم تشف بعد.. أما موهاد فأنا أتذكر الآن أنه كان يستعد لمهمة صعبة ويشك بعودته سالماً منها. على أي حال كانت أيامي تمضي متسارعة كتسارع مراحل تنفيذ التجربة.. و(جو) ذلك الذي أوشكت أن أنساه وهو من قذف بي في هذه العوالم الجديدة قد فاجأني صوته يأتي عبر الهاتف يلاطفني ويطلب إليّ أن أستعد للمرحلة الجديدة من التجربة، أجبته:

– أي مرحلة تقصد؟ نحن زرعنا البذور ولم يبق سوى أيام على جني محصولها!!

جاء صوته هادئاً واثقاً وهو يقول:

– لقد قررنا البدء في تنفيذ الجزء الأخير من التجربة وهو أكثر أهمية بالنسبة لنا من سابقه.

أوشكت أن أنفجر بالصراخ: ألا تكفي تجربة واحد حتى أقوم باخرى؟!.. ولم أكن لأعلم ما تنطوي عليه هذه الاخرى الجديدة التي بشرني بها.

انهمكت مع رجال (جو) بعد مدة من الزمن في حصد البذور الجديدة بمساعدة عمال من أهالي المنطقة، وظللت أصوب نظري نحو الخيام حيث (آيشا) فقد أصبحت أفتقد حضورها في حياتي التي غدت موحشة مثل قفار هذا المكان. كانت عيون الأهالي تبرق بالأمل كلما تكدست أكياس المحصول بازدياد وكانوا يودعونها نظرات الفرح كلما مروا الى جانبها وكأنها قارب نجاة سيعبر بهم من عالم الجوع والحرمان إلى الرفاهية والرخاء.

وبانقضاء تلك المرحلة كانت تجربتنا الأولى قد أوشكت على الانتهاء.. أو هذا ما ظننته على الأقل.. ولم يبق أمام فريق الخبراء بعد أن يتم جني محصول القمح كاملاً وتنظيف الأراضي التي زرعت به إلا أن يوزعوا

المحصول على الأهالي ومزارعي المنطقة الذين تملأ عيونهم لهفة الحصول على هذا الكنز الثمين من المحصول الخصب.

عادت الهواجس تنتابني من جديد وأنا في وحدتي.. ولم تعد أحلامي التي لا تغادرني في أي وقت أجنح فيه الى النوم تريحني.. بل على العكس رحت أرى فيها أرضاً يباباً وأناساً عراة هزيلين يقفون في صفوف طويلة وهم يئنون بأصوات مكتومة وكأن شعاعاً ذرياً قد ضربهم فأفقدهم كل قواهم. وكثيراً ما صحوت منتفضاً وأنا أئن وأصرخ رعباً وفزعاً من تلك الأحلام التي باتت تزورني كل ليلة.

شعرت بأنني محاصر بطريقة ما وأن عليّ أن أكسر طوق هذا الشعور القاتل.. على الأقل كي تعود الى نفسي طمأنينتها.. وإلى شخصيتي توازنها بعد أن صرت انفرادياً وشبه معزول عن الآخرين. أما أعضاء الفريق الذي أنتمي إليه فقد رحبوا بابتعادي عنهم ولم يهتموا لعزلتي.. حتى قادتني قدماي في مساء يوم احتلت سماءه الغيوم الرمادية الى مقر الفريق لعلي أقابل أحداً منهم فألتقط أي جواب لسؤال من بين ألف سؤال يرسم حيرتي وضياعي.

ولكن ما لم أتوقعه هو أنني لم أجد في المقر أياً من الخبراء.. كذلك لم ألقَ باباً موصداً أو قفلاً.. فزادني الأمر حيرة.. أين اختفوا جميعاً؟!.. ولماذا لم يقفلوا الأبواب وراءهم؟!.. ليس من عادتهم ألا يناوب فرد منهم في حراسة المقر!!.. ولكن هذا الأمر دفعني لأن أقوم بمغامرتي التي راودتني من قبل كثيراً وأنا أتصور نفسي أكسر طوق الأبواب المقفلة لأصل الى أوراق ربما هي مفاتيح لكل الأسرار.

وهذا ما حصل فعلاً.. إذ أنني لم أنشغل بالتساؤل بل تسللت بخفة الى غرفة تشبه المختبر ضيقة وطويلة وجدرانها تحتضن خزانات حديدية قاتمة اللون تقبض بداخلها على الوثائق السرية والأوراق التي في غاية الأهمية.

كنت أعرف أو ربما قدرت أن الأوراق في خزانة معينة من تلك الخزائن الموصدة بإحكام وبأرقام سرية لا يعرفها إلا رئيس الفريق.. فكيف إذن السبيل إلى فك شفرة الأرقام هذه؟!

أمضيت وقتاً غير قليل معتمداً على ذكائي وقانون الاحتمالات في العثور على الرقم المفتاح.. ولكن دون جدوى.. حتى خطر في بالي أن تاريخ بدء التجربة ربما كان هو الرقم المطلوب. ويا للمفاجأة المذهلة.. فما إن أدخلت هذا الرقم حتى انفتحت أمامي تلك الأبواب العنيدة. وقفت مذهولاً أنظر إلى محتويات الخزانة ولم يكن في جوفها سوى ملف هزيل من أوراق صفراء تحمل شعار شركة عرفتها على الفور أنها من كبريات شركات البيوتكنولوجيا التي تشق طريقها في مجال البيوتكنولوجي بشراسة.

تلقفت الأوراق كمن يتلقف ثمرة سخية من شجرة بعد جوع شديد، وجلست على الأرض أقلب في تلك الأوراق بسرعة.. لم أرَ فيها ما يثير الاهتمام.. ليس أكثر من معلومات علمية عرفت أكثرها. أوشكت أن أغلق الملف وأعيده الى مكانه عندما وقعت عيناي على جملة كتبت باللون الأحمر: "سري للغاية.. لا يجوز أن يطلع أحد على هذه الوثيقة غير المعنيين بها وفي حال تسربها الى غريب فإن مصيره لابد أن يكون هو الموت". سرت رعشة في جسدي وكأن تياراً صاعقاً أصابني.. وشعرت بحرارة مفاجئة تشع مني.. فتحت عيني بحدقتين متسعتين وهي تلتهم السطور المحرمة وإذا بي أسمع وقع خطوات في حديقة المقر. انتفضت بفزع.. لعله أحد أفراد الفريق.. أو رئيس الفريق.. ماذا سيكون موقفي بل مصيري الآن لو أن أحدهم رآني وأنا أخترق الحجب والأسرار.. ولو أنني لم أكتشف بعد فعلاً ما هي هذه الأسرار.. يا للمهزلة.. بل يا للمفارقة.. ها هي الأخطار تمسك بي دون أن أمسك بها.

أغلقت الخزانة الفصل في هذه القضية بسرعة وأعدت الأرقام إلى

مواضعها وأنا أشد ملف الموت إلى صدري وما لبثت أن اندسست مثل قط خائف تحت طاولة مكتب ضخم مستور الأطراف، ورحت أنصت بقلب راجف الى الصوت القادم وكأنني تحولت الى جهاز إنصات كبير. لم تلبث الخطوات المجهولة أن ابتعدت وهي تصفع الباب الخارجي للمكان بقوة.

تنفست الصعداء حالما أدركت أن لا أحد هنا غيري.. ونظرت بتلهف أكبر الى الملف، ثم استجمعت شجاعتي من جديد وخرجت مسرعاً من المكان لا أنظر خلفي وكأنني سأتحول الى عمود ملح لو فعلت.

★ ★ ★

الفصل السابع:

# مواسم الشيطان

كان يوماً مشرقاً.. صافية سماؤه.. ذلك الذي اصطف فيه الأهالي في خطوط طويلة ليأخذوا حصصهم من محصول القمح الموعود، وقد تهللت وجوههم بالبشر والسرور. أما أعضاء الفريق فقد كانوا يتحركون بهمة ونشاط غير اعتياديين وهم يوزعون أكياس المحصول العجيب على هؤلاء القوم البسطاء الذين غزتهم الحروب بويلاتها فأفقدتهم كل شيء ما عدا حب البقاء. وكنت أتجول بينهم شارد الفكر هائم النظرات وكأنني مخطوف الى عالم آخر.. لم أشارك المجموعة التي انتمي إليها في أعمال التوزيع أو تدوين أسماء الفائزين من الأهالي بكميات من القمح الجديد. وبدوت وأنا في حالي هذا وكأن الأحداث تدور خارج دائرة اهتمامي حتى اتجهت أنظار الريبة نحوي فتقدم مني رئيس الفريق يسألني:

– ماذا أصابك يا فرانك؟ لماذا لا تشاركنا العمل؟

ولما لم أجب أضاف بصوت خفيض:

– هل أصبحت تتعاطى المخدرات؟

رشقته بنظرة متحفزة وقلت:

– وهل تعتقد ذلك؟

رد بتهكم:

– المخدرات متوفرة على أي حال بكثرة في هذه البلاد.

ولم يلبث أن انصرف عني معتقداً أنني سأبادر الى الانضمام لنشاط الفريق بعد ملاحظته هذه، ولكني ما إن استدرت حتى لمحت (آيشا) بين

صفوف الأهالي تنتظر دورها وهي تواري نظراتها عني.. ياه كم كنت بحاجة لأتحسس وجودها بقربي.. وأن أعرف سر حضورها السابق في حياتي كما سر اختفائها وابتعادها عني.. ولكن هل هذا فقط هو ما كنت أريد معرفته.. لا طبعاً.. فهناك الكثير مما يستثير ريبتي وتساؤلي. وفجأة شعرت بانقباض في صدري وأوشكت أن أسحب (آيشا) من يدها واطلب إليها ألا تستلم حصتها من تلك الأقماح ولكنني خفت أن ينكشف أمر معرفتي بها فأتسبب لنفسي ولها بالأذى، ولم أجد مفراً سوى أن أهرب الى منزلي.

في منزلي المنعزل أغلقت دوني كل الأبواب والنوافذ قبل أن تمتد يدي إلى أحد الأدراج لأخرج منه الملف، وكنت قد هجرته بعد مغامرتي تلك التي مكنتني منه. أخذت نفساً عميقاً، وشجعت نفسي على أن أقوم بما كان عليّ القيام به منذ أيام ففتحت الملف من جديد ورحت اقرأ.

انسابت السطور أمامي وأنا أكاد لا أصدق ما تقع عليه عيناي.. وقرأت: "شركة البذور الغربية تصدر براءة تقنية جديدة لاستخدام الهندسة الوراثية، قامت بها جامعات ومراكز بحوث زراعية على سلالات القمح والأرز، وهي تعطي أضعافاً مضاعفة من المحصول. أما البذور المعدلة وراثياً فهي لن تنتج محصولاً إلا لمرة واحدة فقط وهو ما تريده شركتنا بهدف حماية ملكيتها الفكرية، وتحقيق عوائد عالية من الأرباح. لقد اعتمدت تقنيتنا الجديدة على حل علمي بالغ الذكاء، يقضي بأن يقتل بموجبه النبات بذوره فلا تنبت من جديد إذا ما زرعت، وبذلك يترتب على المزارع أن يعود الى شركتنا ليشتري منها بذوراً جديدة. أما الصفات الوراثية للنبات فإننا نتحكم بفتحها أو غلقها باستخدام منتجاتنا من المواد الكيماوية الخارجية كالأسمدة والمبيدات والمخصبات والمحاليل وغيرها".

تسارعت نبضات قلبي وأنا أقرأ تلك السطور.. لكنني أوشكت على الإغماء عندما قرأت عبارات طبعت بحروف غليظة قاتمة اللون تقول: "بفضل

تقنية انتحار النبات هذه أو قتله لأجنته التي في داخله سوف يقع أمن العالم الغذائي في أيدينا". "هذه التقنية الجديدة تستوجب إجراء تجارب على البشر.. وبالتأكيد لن يكون هؤلاء البشر في بلادنا".

استنفرتني تلك العبارة الأخيرة فرميت الملف من يدي وكأنه نار لسعتني، ودفنت وجهي بين كفيّ وأنا أبكي.. ولكن هل كان هذا كل ما فيه؟.. لا.. فبعد أن جففت دموعي قرأت من جديد عبارات هي أكثر قسوة من سابقتها: "إن أبحاثنا تنفرد بإبداعات ثورة البيوتكنولوجيا الجديدة والمتطورة، لقد تمكنا أخيراً من إدخال جينات جديدة من الخارج إلى المادة الوراثية للكائن الحي.. لقد أصبح بإمكاننا إدخال جينات بشرية وحيوانية إلى النباتات.. ولم يبق سوى أن نرى تأثير إبداعاتنا على البشر في أماكن بعيدة عنا".

إنه الشيطان إذن.. شيطان العلم الذي سلب العلم براءته وقدسيته.. إنها علوم الشر التي ستحكم قبضتها على الجنس البشري.. يا إلهي.. كيف انفلت هذا المارد من قمقمه.. وهل من بعد هذا سبيل للخلاص؟

وقعت على الأرض محطم النفس مجروح الفؤاد.. كيف اشتركت في هذه اللعبة الخطرة؟!.. وما ذنب هؤلاء المساكين من البشر حتى يكونوا فئران اختبار لجنون العلم؟.. ألا تكفي خيرات أفريقيا وحدها العالم بأسره؟.. لماذا يقسو الإنسان على بني جنسه هكذا؟

لم أعد أحتمل طوفان الغضب الذي ثار في نفسي.. ولا سيل الأسئلة التي تدفقت في ذهني.. ولا جدران البيت التي أخذت تطبق على أنفاسي.. فخرجت أركض في مساحات الأراضي الجرداء وكأنني إنسان بدائي أعزل يهرب من وحش يطارده.

وهبط الليل أسود داكناً وغامضاً وأنا أجوب تائها بين المزارع تارة وبين القفار تارة اخرى.. ولا أعلم كم من الليل انقضى حتى وجدتني فجأة في حقل النباتات المجاور لحقل القمح. رميت بجسدي فوق النباتات المشوهة

التي لم تنبت سوى أجزاء بسيطة منها فنفذت الى انفي تلك الرائحة الخاصة التي كانت لها.. شعرت بالتقزز.. وانتشلت نفسي من بينها وما إن دست بقدمي فوق أجزاء ذابلة من تلك النباتات حتى سمعت همهمة كأنها لبشر وأصواتاً مختنقة وكأنها تأتي من باطن الأرض.

تجمدت أوصالي.. كما تجمدت خطواتي.. تسمرت في مكاني وكأن أيدي قد خرجت من بين التراب والجذور لتقبض على قدمي.. نظرت غير بعيد عني فتمثل لي (جو) بقامته الطويلة وكتفيه العريضين وقد ازدادت قامته طولاً.. وبدا كتفاه مثل رياضي محترف.. أما رأسه فقد اختفى منه شعره الذي بدأ يشيب ونبت له قرنان في وسط رأسه.. هل أصبح شيطاناً.. أم أنه كان كذلك وأنا لم أستطع أن أراه جيداً على حقيقته؟!.. ضحكة مدوية كانت تصدر عن (جو) الماثل أمامي بينما عيناه تطلقان شرراً غريباً. (جو) إذن ضمن اللعبة.. لعبة الهندسة الوراثية للحبوب والنباتات.. وتذكرت كيف أن حقوله كانت منفصلة بعضها عن بعض.. قسم منها للتصدير فقط وهي الأكثر نضجاً وامتلاءً للسنابل.. والأخرى هي للتخزين في الصوامع من أجل بيعها.. وكيف أنه كان يشرف بنفسه على جمع المحصول حسب نوعيته.. ويرفض رفضاً تاماً أن يترك لأسرته كمية من حبوب التصدير حتى لمناسبات الأعياد.. أعياد الحبوب كما يسمونها.. وهي التي تؤخذ فيها كميات من القمح أو الذرة لسلقها ومن ثم توزيعها على العمال والفلاحين ضمن طقوس احتفالية لا يعرف أحد تاريخها أو مصدرها.

ترى هل كانت (ميريام) تعرف سر أبيها.. وسر أنواع القمح أو الذرة؟.. لعلها كانت تعرف ولعل هذا هو ما كانت تريد أن تبوح لي به قبل سفري.. لم أكن قادراً على أن أعاتب شبح (جو).. فهو قد خدعني. لكن طيف (ميريام) بدا لي مثل ملاك حزين.. واستطعت أن ألمح نظرتها المتسائلة والتي تشبه الى حد بعيد نظرة (آيشا). ووجدتني أهتف: آيشا.. آيشا.. أيتها البراءة من

عالم بريء.. هل يمكن أن أخدعك أنا كما فعل بي (جو)؟ لا.. لا يمكن.. لابد أن أصارح (آيشا) بذلك.. ولكن كيف ولا لغة تفاهم بيننا إلا عن طريق (موهاد)؟ هذا يعني أن موهاد سيعرف السر.. لا.. كل ما يمكنني فعله هو أن أمنع (آيشا) من أن تشتري حصة من هذا القمح.

نظرت الى المكان من حولي وكان ستار الليل قد انكشف وتلألأ مكانه نور الفجر الفضي لأكتشف أنني مغروس في تلك الأرض قاتمة التربة وحيث خرجت الى سطحها هذه النباتات الغريبة المشوهة وقد بدت وكأنها اكتسبت قدرة جديدة على النمو إذ قد تطاولت أجزاؤها وانتعشت أغصانها وأصبحت أكثر غلظة.. أفزعني منظر أقدامي وهي تغوص في التربة الرطبة وجسمي يلقي بثقله ليغرس أقدامي أكثر فأكثر. انتزعت نفسي بصعوبة من ذلك الوحل الذي خلته وحشاً يريد أن يبتلعني.. وما إن وقعت عيناي من جديد على نباتات الحقل والتي زرعها فريق الخبراء معلنين بها بدء مرحلة المشروع الثانية حتى وجدتها وكأنها في حالة تسارع نمو غريبة فمنذ دقائق لم تكن كما هي عليه في هذه اللحظة.

أطلقت ساقي في ركض محموم كي أبتعد عن الحقل المشؤوم وكأنني سجين فار من عبودية أوشكت أن تستبد به أو كأنني هارب يفرح بحريته. كان صوتي يتصاعد مع لهاثي وأنا أركض وأنادي: موهاد.. موهاد.

وفكرت أنني يجب أن أعثر على موهاد.. ولكن كيف السبيل إليه؟ بل ماذا سأقول له؟ هل أستطيع أن أكشف له السر؟ ولو فعلت فكيف سأفسر له أننا نزرع في هذه الأرض البريئة بذور الشيطان؟ وما يدريني أنه سينقلب عليّ؟.. إذن ليس سوى أن أحرر (آيشا) وجماعتها من تلك البذور.

وما إن اقتربت من منزلي حتى لمحت موهاد يحوم حوله وينظر عبر النوافذ نحو الداخل.. يا إلهي هل هي معجزة.. أن ألتقيه مصادفة في اللحظة ذاتها التي تناديه بها أعماقي!!

لثوانٍ خلت نفسي أنني أتوهم وجوده فصرخت بأعلى صوتي:

- موهاد.. أرجوك لا تذهب.. انتظرني..

ركضت بأقصى طاقتي وقد غادرني جزء كبير منها حتى وجدت نفسي أقف وجهاً لوجه أمامه. نظر إليّ باستغراب وقد بدا هادئ النظرات مطمئناً بينما كنت زائغ البصر، مشعث الشعر، مغبر الثياب. التقطت أنفاسي بصعوبة وأنا أقول له:

- هيا تعال معي إلى الداخل.. أنا بحاجة إليك.

سار ورائي مثل طفل مطيع حتى دخلنا المنزل، تأمل المكان وكأنه يدخل إليه للمرة الأولى، ثم قال بنبرة حادة:

- ما بك يا فريد؟.. لماذا تبدو على هذه الصورة.. هل أنت مطارد أو أن أمراً عظيماً ألمّ بك؟

جلست قبالته وأنا أحاول أن أستعيد شخصيتي التي عرفني بها، وقلت:

- اسمع يا موهاد.. لا يهم ماذا ألمّ بي.. المهم أن تساعدني.

أجاب باستغراب:

- بماذا سأساعدك؟.. سأفعل لو كان بمقدوري.

قلت وأنا أستجمع أفكاري وأحاول أن أصوغ عباراتي بشكل مختصر حتى لا أتورط في كشف السر الذي أخبئه في أعماقي:

- هل تذكر تلك المواد التي انفجرت.. إن من بينها محاليل حيوية استخدمها الخبراء في إنبات حقول القمح.. وقد عرفت مؤخراً أن هذه المحاليل ربما تضر بالبشر.. صحيح أن تجارب عدة أجريت بهذا الخصوص لكن النتائج ليست مضمونة بشكل تام.

أجاب:

- ولماذا يفعلون هذا.. ألأننا ننتمي إلى عالم غير عالمهم.. أم لأنهم مزهوون بتقدم حضارتهم؟

قلت:

– كل هذا لا يهم.. المهم أن نخلّص هؤلاء المزارعين من تلك الحبوب التي تحكموا في تغيير جينات النبات عنها.

نظر إليّ باستغراب وأنا أنطق جملتي الأخيرة وأدركت على الفور أنني أخطأت في التعبير أيضاً، قال لي:

– ماذا تقصد بأنهم تحكموا في جينات النبات؟.. أريد أن أفهم.

ارتبكت وأنا أحاول أن أتحول إلى حديث آخر:

– بل أنا من يريد أن يعرف سر اختفائك كل هذه المدة؟

أجابني وكأنه قد تجاوب مع حيلتي في التهرب من الرد على سؤاله:

– ها قد أصبحت الأسرار تتغلغل في شرايين حياتنا.. فهل تريد فعلاً أن تعرف؟

أومأت برأسي أن نعم، فقال:

– اسمع يا فريد.. صحيح أنك لست من أهل هذه البلاد ولا أنت تنتمي إلى ثقافتها الحضارية أو الروحية ولكنني أحس كما لو أنك كذلك.. وأشعر أن في أعماقك جوانب لم تلوثها الحضارة التي نعيشها ولم يطالها العنف الذي بدأ ينغرس في النفوس. وأنا الذي فقدت كل شيء لم يعد يخيفني أي شيء سوى أن يفقد الإنسان فوق هذا الكوكب براءته وفطرته النقية.. أما أنت فما تزال تقبض في أعماقك على هذا النقاء.

قلت وأنا أتلهف لسماع المزيد:

– وماذا بعد؟

قال:

– سوف يقوم الثوار بعملية اقتحام سريعة لهذه البلدة الصغيرة ليس بهدف الإضرار بالسكان أو ترويع الأهالي لا سمح الله.. بل ليعلنوا لخصومهم أنهم مازالوا يستطيعون أن يفرضوا سيطرتهم على أماكن لا

يتوقعونها.

سألته:

– وهل أنت من بين هؤلاء الثوار؟

أجابني وهو يبتسم:

– ليس بهذه الدقة.. بل أنا أساعدهم وقد أمهد لهم الطريق.. أو أزودهم ببعض المعلومات اللازمة.

صمت للحظات وهو يفكر عميقاً.. وصمتُ أنا أيضاً ثم فاجأني يسأل:

– هل زارتك آيشا قريباً؟

قلت كمن انفتح أمامه فجأة عالم وردي:

– آيشا لم تزرني بل إن طيفها كان يأتي إليّ كل يوم مع أنسام الفجر..

صمتُ برهة وأنا أستحضر صورة وجهها وعمق نظراتها، وأضفت:

– لكنني رأيتها وهي تستلم حصتها من حبوب القمح.. يجب أن نخلصها من خطر تلك الحبوب.

قال بانفعال:

– لا.. لا يمكن أن تفعل ذلك.. فقد باعت (آيشا) حليها من أجل أن تشتري ذلك القمح وتقدمه هدية لأهلها لكي يزرعوه في أرض يملكونها، وقد قالت لي إنها ستقول لهم إن هذه هدية منك.

إذن.. فآيشا تريد أن تقربني من أهلها.. تجعلني بطلاً كريماً أمامهم.. وماذا غير ذلك؟ لا أدري!!.. مسكينة (آيشا).. ومساكين أهلها.. سوف يبذرون هذا القمح ولكنهم لن يحصدوا سوى بذور موسم واحد فقط ولو خزّنوها وأعادوا زراعتها فلن يحصدوا شيئاً ما عدا الخيبة. ومن يدري.. ربما سيعودون مع سكان القرية إلى بيوتهم المهدمة على أمل أن يجنوا محصولاً جيداً ويربحون منه ليعيدوا بناء حياتهم من جديد.

وهكذا.. فالجريمة تتسع دوائرها.. ولن ينفع معها الحذر.. جريمة تطال

أناساً كثيرين.. وربما شعباً بأسره.. هذا ما تفعله تلك الشركات لاستعمار جديد للبشر.. استعمار عن طريق الغذاء بعد أن استعمرتهم عن طريق الدواء والأسمدة والمواد المخصبة أو الأخرى التي تقتل الحشرات وتنظف الأراضي المحروقة بالحروب.. والمحروثة بالإهمال.

نظر موهاد إلى ساعته ثم هب واقفاً كمن لسعته أفعى، وقال وهو يتجه نحو الباب الخارجي:

- يجب أن أغادر فوراً فهناك من ينتظرني.

حاولت أن أستوقفه:

- ولكن.. لم نتفق بعد كيف سنبعد تلك الحبوب اللعينة عن أيدي الأهالي.

خرج مسرعاً وهو يقول:

- فيما بعد.. ليس الآن.

★ ★ ★

## الفصل الثامن:

# آمـال مراوغـة

كان لابد لي أن أتصل بآيشا بل بأسرتها أيضا بعد أن شعرت أنني أصبحت شخصاً مرغوباً بي لديهم وربما محبوباً.. ذلك لأنني حققت لهم حلماً وهو استصلاح الأراضي وزرعها بالقمح.. وها هو المحصول بين أيديهم.. أما المزروعات الأخرى فلم يكونوا يبالون بها كثيراً لأن أكثر اعتمادهم في الغذاء كان على اللبن الذي يأخذونه من المواشي، وعلى اللحوم التي تؤمنها لهم أنواع الطيور والدجاج لديهم، وهي تسد احتياجاً هاماً في مسألة الطعام. وتساءلت كيف يمكن أن أتصل بآيشا أو أصل الى أسرتها؟.. وفكرت طويلاً ووصلت الى نتيجة هي أنه لابد لي من أن أستعين بموهاد.. والسؤال الكبير: هل أطلع موهاد على سر البذور التي أنتجت القمح وصولاً الى تنبيه هؤلاء المواطنين الأبرياء أم أكتفي بنصيحة أن يستهلكوا من هذا القمح ولا يفكروا في زرعه؟ وكيف؟.. ليس أمامي طريق سوى أن أعدهم بكميات من القمح للبذار لكني سأكون كاذباً كبيراً.. فكيف سأحصل على هذا القمح وأنا شبه منفي في هذه الأصقاع البعيدة؟

ويبدو أن رغبتي في رؤية (آيشا) كانت أقوى من كل شيء.. فحرصت على أن أبحث عن موهاد، وما إن عثرت عليه حتى فهمت أنه في طريقه لمغادرة القرية إلى المدينة بشكل شبه نهائي.. فقد عثر على عمل يدر عليه مبالغ جيدة تمكنه من تأمين مستقبله. وعندما اجتمعنا لم أحاول أن أفهم من موهاد شيئاً عن نوعية هذا العمل.. لكن الأمور جاءت بالمصادفة فقد جاءني موهاد مرتبكاً والعرق يتصبب منه وهو يحمل طروداً محكمة الإغلاق أراد أن

يودعها عندي.

قلت له في شبه مزاح:

– وما محتوى هذه الطرود يا موهاد؟ هل فيها متفجرات مثلاً أو قنابل أو سلاح؟

نظر إليّ بعتاب، وقال:

– وهل تظن أنني كنت سأودعها عندك لو كانت كذلك؟ لا يا صديقي.. إن فيها مواد استهلاكية وحاجات مما يستعمل في المنازل أو الحياة اليومية.

قلت:

ـ إنها مهربة إذن؟

قال في تحفز وثقة:

– نعم.. مهربة.. وماذا في ذلك مادامت الدولة غائبة عن شؤون مواطنيها ومنشغلة بالحروب والنزاعات على السلطة؟ وماذا في ذلك والمسؤولون أنفسهم هم الذين يرعون شبكات التهريب وخاصة تهريب المخدرات؟

قلت:

– وكيف تحصل عليها أو تدفع ثمنها؟

قال:

– هناك أوكار أو مراكز لتسويق هذه البضائع، وأنا أغامر في الليل وأذهب للحصول عليها بعد أن أعلمهم برغبتي في نوعياتها.. أما المال المستحق فهو ليس مهماً لأنهم سيأخذونه مني ومن غيري حتماً سواء بأن ندفعه من تلقاء أنفسنا أو يرسلون لنا عنصراً من عناصرهم لتحصيلها.. وقد يكون مسلحاً أو الرجال الأشداء فننحني صاغرين أمامه وندفع له.

قلت:

– وهل دفعت ثمن هذه البضاعة؟

أجاب:

– بصراحة.. أنا لم أدفع بعد.. ولا أعرف كيف سأفعل ومتى.. المهم أن أسد احتياجات هؤلاء الناس المنتشرين في تلك الخيام.. إن فيها أدوية ضرورية لهم ولأطفالهم.. وفيها علب حليب مجفف للصغار الذين لا يجدون الرضاعة.. أو الذين ساءت صحتهم.

وخشيت أن يظن موهاد أنني أتدخل في شؤونه أكثر مما يجب فقلت:

– أنا أسألك لأنني أريد مساعدتك.. سأعطيك بعض المال لتسد ثمن هذه الحاجيات.

ضحك وقال:

– وهل ستعطيني المبلغ بالعملة المحلية؟ لا يا صديقي.. إنهم لا يقبضون إلا بالدولار.. تصور أننا في المواقف الحساسة لا نتعامل إلا بعملة خصومنا.. ولكن ما العمل؟ إنها العملة العالمية ولإسمها رنين أغلى من الذهب.

وضحكنا.. وأسرعت فأخرجت له بعض الدولارات ففرح بها كثيراً وقال:

– هذه الأشياء ستوزعها آيشا على طالبيها أو مستحقيها.

وما لبث أن أضاف ممازحاً:

– لقد أصبحت شريكاً معي.. ما رأيك؟

قلت:

– شريك بماذا؟ بالربح؟ أنا لا أريد ربحاً.. أما إذا كنت شريكاً في عملية التهريب فهذا لن يؤثر عليّ.. فأنا في وضع خاص كخبير أولاً.. ثم إنني أحمل الجنسية الأمريكية ثانياً.. هل نسيت؟

وضحكنا من جديد.. وقلت لموهاد إنني أريد أن أزور أسرة (آيشا) إذا كان هو يرى ذلك مناسباً.. أو هو مناسب بالفعل. اكتسب وجهه ملامح جدية وقال:

– كنت سأقترح عليك ذلك.. لاسيما وأن والدها أثنى على سلوكك ثناءً

حسناً.. وأظن أن أغلب أهل المخيمات ينظرون إليك نظرة محبة بعد أن هيأت لهم هذا المحصول من القمح.

قلت منفعلاً:

– لا تحدثني عن القمح.. أرجوك إن له مشكلة سوف أخبرك عنها يوماً.. أنا أريد أن أذهب إلى (آيشا) وأسرتها من باب الصداقة فقط.. ولأجعل من مجيء (آيشا) إلى بيتي أمراً عادياً.. ولكن لماذا تأتي الى بيتي؟.. أنا أذهب إليهم.. وأقضي سهراتي معهم.. بدل هذه الوحشة التي تطبق علي.. أحس أنهم أناس شرفاء.. وكرماء وطيبون.. وأنا بالطبع ليس لدي مشاعر عدائية لهم.

ابتسم وقال:

– وهل تظن أن أهل (آيشا) لم يعودوا يعرفون بمجيئها إليك ومساعدتك في أعمال البيت؟ لا يا صديقي.. إنهم أصبحوا يعرفون.. ولقد وضعوك في التجربة فخرجت منها منتصراً.. إذ بمجرد أنك لم تتعرض لآيشا وحفظت لها كرامتها فهذا يعني الكثير بالنسبة إليهم.. المرأة هنا يا صديقي حرة.. بكل ما في الحرية من معنى.. لكن لو تعرض لها أحد بالاعتداء عليها أو على حريتها فإنها تنقلب إلى نمرة شرسة.. ويصبح أهلها أعداء لمن يعتدي عليها.

قلت:

– حسناً.. إنهم إذن قوم يحملون أخلاقاً وقيماً أصيلة.. وأنا قد لاحظت من سلوكياتهم أنهم يفوقون مَنْ نسميهم المتحضرين بأشواط كثيرة.. فهل الحضارة يا أخي أن نعيش في بيوت تحتوي على الأدوات الكهربائية وأن نستعمل الآلات الحديثة؟! لا.. الحضارة أخلاق.. وقيم.. ومفاهيم.. وعلاقات اجتماعية فيها رقي الإنسان من الداخل. أنا أراقب تصرفاتهم وأعمالهم.. لم أجد بينهم شجاراً أو خصومات أو اقتتالاً.. إنهم يتحركون ضمن تجمعهم

في الخيام بانتظام وهدوء.. ويتبادلون المصالح والمنافع بكل سهولة ويسر.. حتى أطفالهم لا يبدون عدوانيين أو يبتعدون عن نطاق مجتمعهم البدائي أبداً.. كأنما الجميع قانعون راضون بذلك.. ثم هل تظن أن سلوكياتهم ستختلف فيما لو سكنوا البيوت بدل الأكواخ واستعملوا الآلات الحديثة عوضاً عن تلك البدائية؟

قال:

– ما أظن ذلك.. إنها الأصالة يا صديقي.. وهذا ما يميز شعوب هذه المنطقة مهما بلغ حالها من الاضطراب السياسي.. أو من الوقوع في مآزق كالحروب والنزاعات.

قال مختصراً النقاش الذي بدا لنا طويلاً:

– إذن فأنت تريد زيارة (آيشا).. حسناً.. سأسبقك إلى هناك وأعلمهم بمجيئك ثم تتبعني.

واضطرب كياني.. سأقابل (آيشا).. وهي التي افتقدتها هذه المدة كلها.. واعتقدت أنها مدة طويلة ولو أنها لا تتجاوز عدة أيام. ومن دون شعور نظرت إلى وجهي في المرآة فوجدتني مقبولاً أمام حسناء مثل (آيشا).. بل جميلاً.. وأنا لا أمتلك تلك السحنة التي تميز الأمريكيين من ملامح..لا زرقة العيون.. ولا البشرة البيضاء.. وأنا في شكلي اقرب الى سكان هذه المنطقة.. ولأول مرة أشعر أن هذا امتياز وليس نقصاً.. وغادرني إحساسي الماضي بين أسرة (جو) بأنني مختلف عنهم بل ربما أقل شأناً. أصلحت هندامي وفكرت في هدية احملها معي فعثرت على راديو ترانزستور صغير قلت أقدمه لأبيها.. أما هي فإن لدي كثيراً من الأشياء الصغيرة الجميلة التي يمكن أن تدخل السرور الى قلبها.. وتذكرت أني اشتريت لأجلها من المدينة.. عطوراً ووشاحاً خمري اللون.. ولم أجرؤ على أن أقدمها لها.

سبقني موهاد.. وكنت مضطرباً جداً ولبثت عند الشرفة حتى لوح لي

بيده فأسرعت كما لو أنني على موعد حب.. ولماذا لا أقول موعد حب؟ ليس من الضروري أن يكون للحب أسلوب واحد بل الحب نفسه لا يكون واحداً. أنا أحب (آيشا).. وأحب هذه البلاد.. وأحب نمط الحياة فيها.. بل أصبحت أحب كل شيء فيها.. هل كان لضميري أثر على ذلك عندما اكتشفت أنني جزء من مؤامرة خداع لهؤلاء الناس الطيبين؟ ربما.. ولعل قسماً من هذا الحب هو تكفير.. أو طلب للصفح.. أو ترضية. لا يهم.. المهم.. أنني لازلت إنساناً جيداً يفرق بين قيم الخير والشر.. وبنور الشيطان هذه لم تقتلع من نفسي بذور الخير والمحبة.. لعل أشواكاً كثيرة تنبت في حياتي هذه الجديدة.. بعضها من صنع يدي.. ولكن لا يهم أيضاً.. سوف أقتلعها بنفسي.. وأعود صافياً كهذا الحليب الذي يقدمونه في كؤوس بللورية للضيوف الذين يحلون بهم في أول لحظات اللقاء.

★ ★ ★

في الطريق إلى خيمة (آيشا) كان موهاد يتحدث ويتحدث دون انقطاع.. وكأن آخر ستار بيني وبينه قد سقط وأصبحنا صديقين حميمين.. وكان يرد على كل الأسئلة التي تتردد في داخلي.. ذلك دون أن أسأله.. حدثني عن (آيشا) وقال:

– لا تظن أن هؤلاء الناس من أهل (آيشا) وقومها قوم بدائيون.. لا.. فهم متحضرون.. ومتعلمون.. لكن أسلوب حياتهم المعيشية لا يزال يحتفظ بالتقاليد والعادات الأصيلة.. كانوا وهم في القرية يرسلون أولادهم الى المدارس في المدينة بعد انتهائهم من المدرسة الابتدائية الوحيدة في القرية.. وإذا كان لهم أقرباء في العاصمة فهم لا يتأخرون عن إرسال أولادهم إليهم ليكملوا تعليمهم.. هكذا فعلوا مع (آيشا) فقد ذهبت الى عمتها في العاصمة.. وتعلمت في مدرسة فرنسية.. وهي تلم إلماماً بسيطاً بتلك اللغة.. وفتحت عينيها على الحضارة الحديثة لكنها بعد أن عادت الى القرية قبل أن

تتهدم عادت الى أصالتها والى زي الفتاة التقليدي وهي راضية تماماً عما تفعل. ولعلها إذ تشارك في أعمال الحلب ورعاية الماشية.. وفي أعمال البيت «الخيمة» تشعر بسعادة.. وهي لا تتضجر أبداً ولا تطالب أهلها أن يعيدوها مثلاً الى العاصمة.. أو أن حياتهم يجب أن تسير على نمط غير هذا النمط. إنها فتاة ذكية وعاقلة ولديها حب المعرفة والاكتشاف والتعرف الى الناس.. وقد قالت لي إنها معجبة بك لحسن سلوكك وتصرفك المحتشم.. ومراعاتك لتقاليد البلاد.. إنها جوهرة يا فريد.. وهي أيضاً صريحة وصادقة.. وما أخفت عن والدها شيئاً مما تفعله.. صحيح إنها منعزلة في هذا الجو.. لكنها تقرأ.. وتقرأ كثيراً.. وتشتري الكتب من المدينة.

وفجأة برز لي سؤال لا اعرف لماذا؟ قلت:

– وما معنى اسم (آيشا)؟

ضحك وأجاب:

– إنه اسم ديني.. لزوجة الرسول أم المؤمنين (عائشة) ولكن تحريفاً بسيطاً طرأ عليه فأصبح (آيشا).

وحتى لا ينتبه لمغزي سؤالي قلت ممازحاً:

– وموهاد.. ما معنى موهاد؟

قال:

– إنه أيضاً تحريف من اسم محمد نبينا.. هذا ما عرفت به.. وهنا تختلط الأسماء.. وتحرف حتى تكاد تضيع معانيها.

تمنيت لو حدثني أكثر عن نفسه.. وعن (آيشا).. وكنا وصلنا إلى الخيمة حيث هي.. كان والدها بانتظارنا أمام باب الخيمة وقد ارتدى زياً تقليدياً نظيفاً وجميلاً.. وصافحنا ورحب بنا مثل أي إنسان متحضر يستقبل ضيوفه.. ولعله بالغ في الترحاب بنا بينما كانت عيناي تبحثان عن (آيشا).. وفوراً مد لنا بكؤوس بللورية مذهبة فيها حليب محلى ومعطر وساخن وعاد

إلى الترحيب بنا من جديد.. بل كانت عبارات الترحيب في جمل كفواصل بين كل حديث وآخر.. لم يبدأ بأسئلة بل ترك لموهاد أن يحدثه عن أوضاع البلاد عموماً.. وعن الحرب الخاسرة التي تقودها أمريكا وعن المدن الكبرى التي أصبحت مفصولة بعضها عن بعض. ولما وصل إلى الحديث عن العاصمة أطرق الرجل ونظر الى الأرض،

ثم صفق بيديه فأتت (آيشا) على الفور.. قال لها:

– تعالي للترحاب بضيوفنا يا آيشا..

ففعلت، ثم اتجهت إلى زاوية من الخيمة فيها جرن خشبي مطعّم بالنحاس وله مطرقة ذات رنين فطحنت حبوب البن بنغم وجدته عذباً، ثم غابت قليلاً وعادت بفناجين قهوة تفوح منها روائح المسك.. قالت:

– هل تفضلون للغذاء لحم الطيور أو الدجاج أم لحم الضأن؟

ولم أرد أنا بالطبع بل رد موهاد قائلاً:

– أي شيء من يديك الكريمتين يكون سائغاً وجيداً.. أليس كذلك يا فريد؟

فأومأت برأسي موافقاً.. ولم تشارك (آيشا) بالحديث بل انسحبت وأخذت أتأمل الخيمة بأعمدتها الخشبية المصقولة وبالسجاد الثمين الذي فرش فوق أرضها.. وبالأرائك النظيفة بالألوان المتعددة التي تتناثر في جوانبها. وسمعت من الجهة الخلفية ضجة وأصواتاً معدنية لأدوات مطبخ وضحكات نسائية، فقدرت أن هذا هو مكان المطبخ.. ولم تلبث سحب من الدخان الخفيف أن ملأت الجو حولنا.

قال والد (آيشا) واسمه (الشيخ محمد) وكأنه يصل حديثاً انقطع:

– أما هذه البذور التي حصلنا عليها، ما أظن أنها تكفي للبذار في الأرض التي نملكها والتي تبعد حوالي ساعة عن هذا المكان.. إنها أرض جيدة.. لم يلحقها الخراب ولا آثار الحرب والحرق كما غيرها إننا نحتاج إلى

كميات اخرى.

شعرت بالاضطراب يهز كياني.. ماذا أقول له عن تلك البذور؟ هل أقول إنها بذور شيطانية ولا تصلح للزرع وأنهم دفعوا دم قلوبهم ثمناً لها؟ كيف أشرح له عن هندسة الجينات الوراثية والتلاعب بالمورثات.. وأنها ليست أكثر من تجارب؟

استجمعت شجاعتي وقلت:

– أعتقد أنه قمح أنتجته التجربة.. وأنه غير صالح إلا غذاءً للطيور والدجاج. وأنا أفضل ألا تأكلوا منه أنتم أيضاً. أما للزراعة فهو حتماً غير صالح.. ولن ينتج إلا سنابل فارغة.

وقع فنجان القهوة سهواً من يد الشيخ محمد وقال:

– ماذا تقصد أيها الضيف العزيز؟ هل نحن نخدع أيضاً في هذا المجال كما خدعنا في مجالات أخرى كثيرة؟ أخبرني بصراحة وبالتفصيل.

★ ★ ★

الفصل التاسع:

# مفاجآت

بيادر القمح أعطت إنتاجاً كبيراً بعد أن امتدت المساحات وهي تخفق باللون الذهبي.. وكلما نضجت السنابل نضجت آمال أولئك المساكين الذين يعيشون في الخيام، وهم يحلمون بموسم خصب يدر عليهم المال الوفير ليعيدوا بناء قريتهم، ويعودوا الى حياتهم الماضية من جديد. وأصبحت أشعر بسعادتهم وهم يرحبون بي في كل خيمة وكأنني أصبحت واحداً منهم. وتوالت زياراتي لهم مع (موهاد) الذي لم يعد يفارقني أبداً حتى أنه أصبح ينام عندي في بيتي وكأنه قد كرس نفسه لغاية كبيرة لم اكتشفها حتى قلت له يوماً:

– أراك لا تذهب إلى أعمالك يا موهاد.. أقصد تجارتك.

رد بتهكم:

– تقصد عمليات التهريب.. لا أنا في إجازة ففي هذا الوقت من السنة يتوقف كل شيء.. الناس منتشرون هنا وهناك حتى في ليالي السهر وضوء القمر.. من يضمن لنا ألا يكون بينهم من يدس علينا عند الحكومة فتخرب بيوتنا وتقودنا إلى السجون؟..

قلت:

– لكن الحكومة تعلم بما تفعلون.. وهي تغض النظر عنكم.. ولعل بعض المسؤولين فيها شركاء معكم أليس هذا صحيحاً؟

رد بتراخٍ:

– صحيح إلى حد ما.. فعندما يكون الأمر مستوراً ودائرته ضيقة فهم لا يدققون.. لكن الأمر إن أصبح شكوى رسمية فهو مختلف.. لا يستطيعون

أمام الرأي العام إلا أن يوقعوا العقوبات خاصة وأن هناك صحفاً تنشر كل شيء عن هذه المواضيع.

قلت:

- إذن ما عليكم سوى أن تأخذوا جانب الحذر.

قال بابتسامة غامضة:

- صحيح.. صحيح.

إلا أنني شعرت أنه يخفي شيئاً آخر غير قصته هذه.. وبدا لي أنه حريص على أن يعرفني بأهل الخيام جميعاً.. ويتركني أحياناً لمدة طويلة عند الشيخ والد (آيشا) حتى أصبحت أعرف بعض الكلمات والجمل التي يمكن أن نتفاهم بها. إلا أن لغة أخرى خفية كانت بيني وبين (آيشا) هي لغة العاطفة.. فآيشا تبدو سعيدة كلما أطلت زيارتي لهم.. وأنا بالتالي كنت أشعر أن شيئاً غامضاً يربط بيني وبين (آيشا)، وأن هذا الرابط يزداد متانة وقوة يوماً بعد يوم كلما تقدمت (آيشا) في تعلم اللغة الإنكليزية مني.. وما كان أعذب تلك الجمل كفواصل للكلام وهي تستعملها في كل مناسبة. لماذا هي سعيدة هكذا؟ ولماذا تحرص كل الحرص على تعلم الإنكليزية؟ هل تريد مثلاً الهرب من بيئتها وقومها؟ لا.. يبدو ذلك بعيداً.. فهي تحب أهلها حباً كبيراً وخاصة والدها.. وهي منسجمة تمام الانسجام مع بيئتها حتى أصبحت تدعوني لإطالة زياراتي لهم وصولاً الى أوقات الغذاء أو العشاء فتقدم لي طعامهم بكل فخر واعتزاز، وهي تشرح لي فوائد هذا الطعام البسيط المزود بأنواع البهار والبسيط في صنعه. وبدأت أحب فعلاً هذه الأطعمة وخاصة منتجات الزبدة والقشدة والجبن والسمن فهي لذيذة الطعم جداً، وهي نقية ونظيفة من المواد الصناعية التي توجد عادة في مثل هذه المنتوجات، ولما لاحظت (آيشا) أنني بدأت أعتاد على إدخال هذه الأطعمة في وجباتي اليومية قالت لي ذات مرة:

- هل تريد أن تعرف كيف نصنع الزبدة؟ تعال إذن في الصباح الباكر

وسترى بنفسك.

ولبيت الدعوة.. هل من أجل أن أتعرف إلى هذه الصناعة البدائية أم من أجل أن ألتقي بآيشا؟ المهم أنه قبل بزوغ الشمس توجهت الى (آيشا).. وسمعت أصواتاً نسائية وضحكات تأتي من خيمة جانبية ولمحت (آيشا) عندما لوحت لي بيدها فسرت نحوها على مهل. رأيت نساءً يضعن الحليب في (قربات) مصنوعة من جلود الحيوانات.. واحدة تصب الحليب والأخرى تقوم بذراعين قويتين بعملية ارتجاج متواصلة وهي تضحك.. حتى إذا تعبت سلمت (القربة) الى أخرى فتواصل عملية الارتجاج.. وبعد فترة زمنية يبدو أنها محسوبة بدقة، تضع إحداهن (القربة) فتأتي أكبرهن لتفتح الرباط المحكم على عنق (القربة) ثم تفرغ ما فيه من سائل أصفر اللون هو المصل لتمد أصابعها بمهارة وتجمع الزبدة التي التصقت بجدران الوعاء، فتجعلها مثل كرة صفراء اللون ترميها في وعاء كبير فيه ماء بارد.. وهكذا حتى تتم عملية صنع الزبدة.

كنت أراقب مهارتهن مدهوشاً عندما قالت (آيشا):

– ما رأيك في صنعتنا هذه؟

قلت وأنا أقارن في ذهني بين تلك الآلات ذات الضجيج التي تفرز الحليب عن الزبدة في أي مصنع وبين هذه الطريقة البدائية.

– أنا متعجب لبساطتها.. لكن النتيجة رائعة.

إن النتيجة واحدة تقريباً.. وهي التي تعبر عن ذكاء الإنسان سواء كان بدّائياً أو متحضراً.. والمراحل التي قطعها توصل إلى اكتشافاته واختراعاته. إذن.. فمقياس الحياة واحد.. لكن الأساليب تختلف.

★ ★ ★

في ذلك الصباح البهي.. عندما وقعت تلك الحادثة الكبرى في حياتي كنت قد استيقظت مبكراً جداً.. ولم أنتظر موهاد حتى يذهب معي إلى (آيشا).. بل توجهت وحيداً وأنا واثق أن موهاد سيلحق بي.. لكن موهاد لم يفعل.. ولا

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

أدري لماذا ولا إلى أين ذهب؟ المهم أنني لم أكن بحاجة إلى موهاد لأنه أصبح واثقاً من ترحيب والد (آيشا) بي ومن نظرة أهلها إليّ، وقد أصبحت عادية وكأنني واحد منهم. لكني وجدت اضطراباً في الخيام وحركة غير عادية سألت (آيشا) وأنا أحرك باطن يدي مستفسراً:

- ما الأمر؟!

ضحكت بعذوبة وقالت:

- إنه العرس.

سألتها باهتمام بالغ:

- زواج مَنْ؟

وكأنما توقعت أن يكون زواج (آيشا) نفسها فتعود حياتي باردة ومظلمة لا شمس فيها ولا قمر.. أشارت إلى صبية صغيرة ناضجة الجسم وكأنها امرأة رغم صغر سنها، وقالت:

- مليكة.. إنها مليكة.

فشعرت بارتياح شديد.. ثم قالت لي إن عليّ أن أكون بينهم حتى يتم العرس. سلمت على والد (آيشا) ثم انفردت في جانب من الخيمة، وأخرجت من جيبي أوراقاً وقلماً وأخذت أكتب وارسم بينما الجو من حولي مثل خلية نحل ولا أحد يستغرب وجودي بينهم. لبثت وقتاً قبل أن أسمع ضحكاً وضجة.. وتقدمت نحوي (آيشا) وهي تمد يديها وقد صبغتا بلون أحمر، وقالت:

- حناء.. حناء.. لقد وضعوا لي الحناء فوق يدي.

وبصعوبة بالغة فهمت أن هذا تقليد وهو أن تصبغ اكف العروس ومن حولها من الصبايا بتلك المادة النباتية التي تفرز صباغاً أحمر.. ولولا أن جاءت (آيشا) ببعض أوراق الحناء لما فهمت الموضوع كله بشكل عام. وما لبث الأهالي أن قدموا لي في صينية مصنوعة من القش أطباقاً من أطعمة عديدة كلها من اللحم تفوح منها روائح التوابل.. فتناولت القليل منها ثم

تناولت جرعات من منقوع الشعير الذي يشبه الجعْة أو البيرة.. وكأنما شعرت بالنعاس فتكومت في زاويتي أنتظر موهاد بعد أن قالت لي (آيشا) إن موهاد قادم ولا شك. ولم استيقظ إلا على أصوات طبول تقرع وجماعات تأتي فوق الخيول أو مشيا على الأقدام متجهة نحو خيمة العروس وهي تثير غباراً كثيفاً. وقفت عند باب الخيمة أتفرج مندهشاً.. وتعالت أصوات لا هي غناء ولا هي أناشيد.. وإنما جمل من الكلام على إيقاع واحد لم افهم منها شيئاً.

وعندما وصلت الجموع إلى الخيام ارتفعت البنادق وبدأ إطلاق النار.. أحسست بفزع شديد.. فماذا لو وصلوا إلى الخيمة حيث أنا واكتشفوا أنني غريب وأجنبي أيضاً؟ أخذت أبحث بعيني عن (آيشا) فإذا بها تسرع نحوي وكأنها أدركت المأزق الذي أنا فيه فأمسكت بيدي وخرجت بي من باب الخيمة ونطقت بعبارات معينة بصوت مرتفع، فقابلني القوم بتحية وأطلقوا عياراً نارياً واحداً ثم ابتعدوا. وفهمت أن العرس يبدأ مع مغيب الشمس، فجلست خارج الخيمة على وسادتين من القش وقد شبكت يديّ ببعضهما وكأنني أقول: أنا ضيف.. أنا أعزل من السلاح.. وها هما يداي تعبران عني.

جلست أتفرج مذهولاً.. والأهازيج تتعالى في الجو.. ثم انعقدت حلقات من الرقص الجماعي للذكور فقط.. بينما الفتيات مختفيات.. وما أن أطل موكب العروس وقد سبقتها قافلة صغيرة من المشاة يحملون صناديق.. وجمل يحمل هودجاً حتى عادت الطبول الى قرعها المتواصل العنيف.. وتعالت الزغاريد من كل اتجاه.. ثم برزت النساء جميعاً مسنّات وصبايا وقد تزين وارتدين عقود الفضة والذهب، بأثوابهن الطويلة وبالأوشحة تغطي الصدور والرؤوس.. وسرن خلف موكب العروس حتى وصل الى خيمة قبعت في آخر مجمع الخيام فأنزلت الأحمال.. ووضعت الأثقال. وبدأ عزف على آله عرفت أنها ربابة وعلى الطبلة وبدأ غناء يشبه الأناشيد بإيقاع واحد، وجاء

موكب آخر مؤلف من شبان صغار السن يهزجون ويهتفون وتطلق فوق رؤوسهم أعيرة نارية يتوسطهم شاب في زي بدوي فاخر فهمت للتو أنه العريس فأوصلوه إلى باب الخيمة، ثم تحلقوا في رقص جماعي مبهج. وما إن ابتعدوا قليلاً حتى انضمت إليهم الفتيات وبدأ رقص من الجنسين كل منهما في صف، ثم امتزجا وتشابكت الأيدي وغاب الجميع في نشوة عارمة. كلهن رقصن إلا (آيشا) فقد وقفت إلى جانب الخيمة تنظر إلي وكأنما تقول لي: من أجلك لم أرقص.. لا أريد أن تبقى وحيداً.. وكلما لوحت لها صبية بيدها أن تعالي وانضمي إلينا أشارت بكفها إشارة قاطعة أن لا .

دام المشهد وقتاً ليس بالقصير ثم اقتربت مني (آيشا) وعيناها تلتمعان مثل نجمتين في ليلة مظلمة، وقالت لي:

– هل تريد أن ترقص؟

نظرت إليها بذهول.. ما هذا الجمال الأخاذ.. الوجه لا يعرف المساحيق ما عدا الكحل في العينين.. والابتسامة بيضاء تكشف عن أسنان كاللؤلؤ.. والخدان يتوردان مثل التفاح.. أما الجسد في هذه الثياب الفضفاضة ذات الألوان الغريبة فيبدو مثل لوحة لفنان استوائي أو أفريقي.. فتحة صغيرة في الصدر كشفت عن بشرة سمراء خمرية. ما أروعك يا آيشا.. سعيد ذاك الذي سيضم هذا الجسد.. ويقبل هاتين الوجنتين.. ويغرق في بحر العينين.

لم أرد على سؤالها: هل ترقص؟.. أعادت عبارتها وقد بدا القلق عليها فانتبهت إلى ما تقوله وأجبت باختصار:

– لا أعرف رقصكم.. ولكن لو أردت سأنضم الى المجموعة وأحرك أقدامي مقلداً لكم. هل هذا وارد؟

ضحكت برنين كالذهب وقالت:

– رقصنا عفوي وبسيط وخطواتنا ترسم حركاتنا، فتعال.

وأمسكت بيدها الدافئة.. وانخرطنا في جموع الراقصين.. ومضى الوقت وكأنه كأس ماء تمتصه الرمال.

فجأة وأنا أحاول الرقص على تلك الأنغام الحادة والتي تجرح القلب قبل أن تجرح الأذن لم أشعر إلا بيد رجل تمسك بيدي بينما أفلتت (آيشا) مني.. فوجئت أنه موهاد.. وهو لا يرتدي الزي الشعبي بل هو بلباس أوروبي لكنه جديد.. بنطال من الجينز.. وقميص مشجر.. وقد رتب شعره وحلق ذقنه. قلت:

أهذا أنت يا موهاد.. إنها مفاجأة.

– قال: لم يدعني أحد للعرس.. هنا لا توجد دعوات ولا بطاقات.. الأهل والأصدقاء بل العشيرة كلها تستطيع أن تشارك.. لكني جئت لأمر هام.

توجست شراً من كلامه، وقلت:

– وهل هو يتعلق بي؟

– قال: إلى حد ما.. لقد رأيت نور بيتك ساطع.. ظننتك فيه.. قرعت الجرس ففتح لي الباب أحد الخبراء الذين يعملون معك أو تعمل معهم.. سألته عنك فأجابني بجفاء إنه لا يعلم.. وقال إنه لم يفتح الباب إلا لأنه ظن أنك أنت الذي تقرع الجرس. قلت له مستغرباً لكن البيت بيته ولاشك أنه يحمل مفتاحه! فأجاب بخشونة وبلهجة عدائية: وماذا لو أضاع المفتاح أو سرق منه؟...

وعندما وصل موهاد الى هذه النقطة من الحديث مددت يدي الى جيوبي فلم أجد المفتاح فعلاً.. إذن لقد سرقوه مني.. سألت موهاد:

– وماذا أيضاً في البيت؟

– قال: أمور غريبة لم أجد لها تفسيراً.

– قلت بنبرة حادة: مثل ماذا؟

– قال: إن أوراقك مقلوبة.. وكذلك خزائنك.. وحتى درج مكتبك.

قلت متماسكاً:

– لعلهم يريدون بعض الأوراق الهامة ولما لم يجدوني ولا يعرفون أين أنا بحثوا عنها بأنفسهم.

– رد: لعله صحيح.. ولكن ما أظن ذلك.. لأن الغرفة المغلقة حيث المحاليل والبذور وما شابه ذلك أيضاً مفتوحة وقد عبثوا بها.

شعرت بأن الأرض تتحرك تحت أقدامي وأنني أغوص في وحل لزج.. فقلت وأنا أفتعل الهدوء:

عليّ إذن أن أرجع الى البيت فوراً.

– قال: لن ترجع وحدك.. سأرجع معك.

ولم يخطر في بالي أن هناك ما يتهددني. وفي الطريق لم نتحدث إلاّ قليلاً موهاد وأنا. وفجأة سألني:

– لماذا لا تتزوج آيشا يا صديقي؟.. إنك تحبها.

واستغربت أن يقول لي ذلك وأنني أحبها عوضاً عن أن يقول لي إنها تحبني.

– قلت: وهل هذا وقته يا موهاد.. ألا ترى المشاكل التي تحيط بي؟

– قال: أسابيع أو عدة أيام وينتهي كل شيء.

– قلت: ماذا تقصد بكل شيء؟

– رد: أعني أن الحصاد الأخير من محصول القمح سيوزع وترتمي الأموال بين أيديكم ويختفي الخبراء.. وتسافر أنت.

– قلت بعصبية: ليست الأمور بهذه البساطة.. فالمحصول لن يباع بأسعار عالية ولن يجرؤ الخبراء على الاختفاء.. أما أنا فأمر سفري بيدي.

– قال: لكني سمعتهم يقولون إنهم ما إن يقبضوا ثمن الإنتاج حتى يتركوا البلدة ويعودوا.. وأنها أوامر الشركة وشخص اسمه (جو).. ولم يرد ذكرك إلا في قولهم: فرانك ليس منا.. الغريب لابد أن يعود غريباً كما كان.

أطرقت مفكراً بعمق وقد أوشكنا أن نصل إلى حقول القمح، قال:

هذا قمح.. مفهوم.. ولكن ما الذي زرعتموه في الحقل ذاك.. البعيد؟.. لقد مررت به فلم أر إلا نباتات متنوعة تشق التربة السوداء لتنمو!. لماذا أصبحت التربة هكذا سوداء.. ألأنكم سقيتموها بتلك المحاليل العجيبة؟ ثم إن صدري

انقبض ما إن وضعت قدمي في ذاك الحقل.. كأنه مسكون بالأرواح.. لا تسخر مني يا فريد نحن نطلق عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) أو (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) أمام كل الأشياء التي نتقرب إليها أو نريد الابتعاد عنها دون أذى.

ولم أعد أعي شيئاً مما يقوله موهاد فقد ذهبت أفكاري كلها إلى ما يدور في بيتي من أمور غامضة وغريبة.

★ ★ ★

عندما دخلت إلى بيتي لم يكن قد بقي من أشيائي سليماً دون عبث سوى جهاز الكمبيوتر.. أضأت شاشته فظهرت رسالة من (ميريام) في أميركا، وكأن الذين كانوا في البيت قد رأوها وتركوها جاهزة لكي استلمها. كانت الرسالة تقول لي إن والدها قد أصيب بالشلل.. وإن كوارث قد حلت بهم.. فقد منعته الحكومة من زرع البذور المحسنة وراثياً لتصديرها.. ثم إن حريقاً غامضاً قد أكل أكثر الحقول المزروعة.. وعلى إثر ذلك ولحزنه وصدمته أصابه هذا الشلل.. وهو عاجز عن الكلام والحركة، ولا يستطيع حتى أن يستخدم يده لكتابة ما يريده، وهي تناشدني باعتباري فرداً من العائلة أو ابن لوالدها أن أعود بأقصى سرعة.

كانت المفاجأة كالصاعقة بالنسبة لي.. فميريام تفترض أنني أعرف نوع البذور التي يزرعها والدها أو أنها بذور (الإبراع).. وأنا بالطبع لم أكن أعلم.. وهي قبل سفري قالت لي إنها تريد أن تعطيني سراً.. لعله هو هذا السر.. لكنها لم تفعل.. وأنا لم أعرف.. ثم إن الوقت الذي احترقت فيه حقول (جو) هو الوقت نفسه الذي تم فيه الحصاد الأول للمحصول.. فيا للغرابة.. أم أنها المصادفات؟! أما أن الحكومة الأمريكية منعت مثل هذه الزراعة فذلك أمر بثته الصحف وتناقلته الأخبار.. وهم قالوا إن الأمر لا يدخل في نطاق التجارة على مستوى العالم وهي ليست أكثر من تجارب علمية.. إذن.. تجارة (جو) وشركته كلها لم تكن شرعية!! وهؤلاء الخبراء هم من ضمن هذه

الشركة أو العصابة التي تنفذ مثل هذه المشاريع وخاصة في الدول النامية أو الفقيرة. وها هم قد خدعوني.. وصرخت دون إرادة مني: أنا مخدوع. وهجمت الدموع إلى عيني.. وأصبح العالم كله مظلماً أمامي.. ولما هدأت وسكن الليل أصبحت في حساب مع نفسي.. إذا كنت مخدوعاً إلى هذه الدرجة فهل يمكن لي أن أخدع هؤلاء الناس البسطاء الذين أحبوني وجعلوني تحت حمايتهم ولم يؤذوني أبداً؟ وماذا لو عرفوا الحقائق وأن لي دوراً فيها؟ صحيح أن الأمور كلها قد جرت بمعرفة من الخبراء وبتنفيذهم المباشر ولكن الصورة الظاهرة هي أنني أنا المسؤول.. وأنا في المواجهة وهذا خداع آخر أن يجروني الى هذا الموقف الصعب.. فماذا علي أن افعل؟

وبعد أن تصدع رأسي لشدة تفكيري قررت ألا أكاشف الخبراء بما أنوي فعله.. لكن الذي نويته كان خطيراً أيضاً.. فأنا لن أبوح لأحد بسر الحقل الذي امتلأ بالنباتات العجيبة.. فلعله هو الآخر حقل تجارب أكثر خطراً من البذور المحسنة.

جلست وراء الكمبيوتر واستخلصت معلومات عن الجينات التي يتلاعبون بها وراثياً فاكتشفت.. ويا لهول ما اكتشفت.. إنها جينات حيوانية وأخرى بشرية يمكن أن يزاوجوها مع الجينات النباتية ولكنهم لا يعرفون النتائج بعد والتقارير تقول إنهم سيجرون هذه التجارب في أمكنة بعيدة جداً عن الرقابة وعن العلماء. إذن.. فماذا يمنعهم من أن تكون هذه تجربتهم أو مغامرتهم الشيطانية؟

وخرجت قبل الفجر الى الحقل النباتي العجيب.. فرأيت النباتات لم ترتفع إلا قليلاً عن الأرض.. نباتات متنوعة ومختلفة في اللون والطول والقصر.. قصفت واحدة على شكل أصابع اليد فخرج منها سائل أصفر داكن اللون يشبه الدم.. واقتلعت جزرة فكانت مثل لسان بشري.. أما الملفوف فكان ينز سائلاً كثيفاً وكلما كشطت ورقه منه زاد السائل لزوجة.. يا للفظاعة.. من أن يضعوا مع تلك المحاليل التي يسقون بها الأرض خلايا بشرية أو حيوانية.

ثار فضولي في أن أعرف النتائج فيما لو تمت التجربة.. ولكن لا.. إنه الشيطان وهذه بذوره. وشعرت بإغماء يستولي علي.. وقعت على الأرض غائباً عن الوعي.. ولما فتحت عيني بعد أن تمثل لي حادث القطار الشيطاني وكأنه حقيقة وليس حلماً رأيت موهاد فوق رأسي وهو يبتسم قال لي:

– ما الذي أتي بك في مثل هذه الساعة الى هذا الحقل؟ أنا لا أمر عادة من هنا لا في الذهاب إلى بيتك ولا في العودة.. ولكني رأيت شبحك من بعيد فعرفت أنك أنت وليس أحد الخبراء.. هيا لنعد سوياً.

قلت بصوت راعش منخفض وكأنه ليس صوتي:

– لا.. لا أريد العودة الى البيت.

قال:

– إذن سنذهب الى (آيشا) وهي ستعتني بك.

★ ★ ★

الفصل العاشر:

# الحريـق

عند مغيب الشمس انتهت زيارتنا لآيشا ووالدها وكنت سعيداً جداً كما لو أنني أطير في الهواء.. أو أنني محمول فوق غيمة فقد استطاعت (آيشا) برقة طبعها وعذوبتها أن تخرجني من حالة انعدام الوزن التي كنت أعاني منها. ودعنا الشيخ محمد أمام باب الخيمة وكذلك (آيشا).. وقبل أن ننصرف قالت (آيشا):

تعالوا انظروا الى مستودع القمح.. فتعجبت من تسميتها (مستودع القمح).. لكنه كان فعلاً مستودعاً فقد جمع أهل الخيام كل أكياسهم في خيمة واحدة منعزلة وعليها حارس وكلب ينبح باستمرار.. هذا وقد وضع كل منهم علامة خاصة فوق كيسه حتى لا يختلط ببقية الأكياس لأن حصصهم لم تكن متساوية.. أما كيس الشيخ محمد فقد رسم عليه بقلم أسود صورة لآيشا. ضحكت وقلت:

من فعل هذا يا آيشا؟

قالت:

أنا.. لأنني أحب الرسم.

وأضاف والدها:

وهي الابنة الوحيدة لي.. وكل ما أملك هو من حقها هي وأمها.

وتساءلت: إذن.. من هن النساء اللائي سمعت أصواتهن في القسم الداخلي للخيمة حيث إعداد الطعام؟! وكأنما أدركت (آيشا) حيرتي فقالت:

لكننا مع هذا أسرة واحدة في هذه الخيام.. يساعد الغني منا الفقير.. ونكون مع بعضنا بعضاً في كل مناسبة للفرح أو للحزن.. اليوم تطوعت

أعداد من نساء القبيلة لمساعدتي من أجل الفرح.

وأردت أن أقول لها: وهل زيارتنا فرح؟ عندما أضافت:

- فرح عظيم.. واحتفالاً بانتهاء الحصاد.

وخفضت رأسي خجلاً.. وقال موهاد:

- يجب أن أتركك الآن لتعود وحدك لأن علي أن أهبط إلى المدينة لأمر هام.

ولم أستفسر منه عن الأمر الهام فهذا من شأنه أولاً ثم إنه ما غاب عني ما يقوم به من أعمال تهريب.. وتذكرت تلك الطرود المخبأة في بيتي. ومع ذلك قلت له:

- لا تتأخر عن سحب حاجياتك من بيتي.

قال:

- سأفعل.. في الليل سيأتي معي من يساعدني.

★★★

عندما دخلت الى بيتي غادرتني مشاعر الفرح والبهجة التي أسبغتها علي (آيشا)، ودخلت من جديد في دوامة السؤال وأنا أتمثل أمامي أكداس حبوب القمح في الأكياس: كيف سأخلص (آيشا) وأهلها وعشيرتها من تلك الحبوب اللعينة؟

أمضيت ليلاً ثقيلاً وأنا أنظر الى القمر والى نجوم السماء وكأنني انتظر أن يأت حل ما من تلك الآفاق.. حل لا أملك أن أقدمه لهؤلاء الأهالي المساكين المبتهجين بأقماح مزيفة غنموا بها بعد أن دفعوا أثمانها من قوت يومهم إلى تجار السوق السوداء. وهبط الفجر ندياً وهبط معه نوم ثقيل فوق جفوني فى أصوات وضجيج وقرع متواصل لجرس باب المنزل أيقظني مذعوراً..

هل جاء موهاد متأخراً أم أن عناصر من الشرطة أتوا يبحثون عن المهربات؟ قفزت باتجاه الباب أفتحه.. فصدمتني وجوه بعض الأهالي وقد

غطتها ملامح الخيبة والفزع.. ووصل الى سمعي صوت أحدهم:

- لقد احترقت أغلالنا.. وضاعت أحلامنا.

لم استوعب الموقف.. وتسمرت في مكاني أتفرس في الوجوه كالمذهول.. لم أستطع أن أنطق.. واعترتني مشاعر غريبة متناقضة.. لا هي الحزن على خيبة الآمال ولا هي الفرح بالخلاص الذي أتى وكأنه قدر إلهي. أما الشكوك والتوجس فقد شغلت المساحة الأكبر من تفكيري.. حريق؟!.. كيف حصل هذا؟

بادرني رجل مسن من بين الدموع التي التمعت في عينيه:

لقد التهمت النيران كل أرجاء المستودع.. وأتت على جميع أكياس القمح.. جميع الأكياس.. لم تُبق منها واحداً.

حاولت أن أهدىء من روعه وأنا أسأله:

لعل لدى الأهالي أكياساً إضافية خبئوها في بيوتهم أو خيامهم.. أليس هذا وارداً؟

رد آخر:

لا.. لا.. ليس في البيوت أو الخيام شيء منها.. وهذه هي المصيبة.. كيف يمكنك مساعدتنا أيها الصديق؟

قلت وقد اضطربت لسماعي كلمة صديق.. فهم إذن يستنجدون بي:

ولكن.. كيف حصل هذا الحريق؟!

قال:

لقد أوقدنا المواقد عند الفجر لسلق كميات من القمح نتوازعها ابتهاجاً بمواسم جديدة قادمة.. ولكن بعضاً من أهالي الخيام لم يراعوا اتجاه الريح فتطاير الشرر بعيداً مع هبة هواء قوية ووصل الخيام ومستودع القمح.

قلت بلهفة:

وهل طالت النيران خيامكم؟

وأوشكت أن أسأل عن خيمة (آيشا) إلا أنني تمالكت نفسي:

هل أصيب أحد بأذى.. أو أن كارثة كبرى قد حلت.. هل...

قاطعني بلهجة حازمة كمن لا يريد أن يضيع جوهر الموضوع:

الكارثة الكبرى هي خسارتنا للغلال.. رغم أن أحداً لم يصب.

تنفست بارتياح رغم القلق الذي انتابني تجاه (آيشا) وقلت:

لعل فيما حصل خير لكم.. أو لعل تلك البذور لم تكن لتعطي محصولاً وفيراً.. سأبذل ما بوسعي لتعويض خسارتكم.

وانطلقت معهم باتجاه الخيام في مبادرة لطمأنة الأهالي بينما كان هدفي الاطمئنان على (آيشا).. ورؤية البذور المحروقة.

★★★

بدأ الزرع في الحقل الجديد ينمو.. وأصبح الخبراء يأتون إلى بيتي.. وفي كل مرة يأتي بها الخبراء لفحص عينات وصب السوائل والمحاليل في التربة كنت أحس بضيق شديد للطريقة التي يفعلون بها ذلك، فهم يأتون في أوقات غير متوقعة مني، ومن دون أن أكون على علم بمجيئهم.. وهم لا يريدون أن يراهم أحد من السكان المحليين بعد حادثة الحريق وبعد أن أصبح سكان القرية يعرفون أن أموراً غريبة تجري في البناء الذي كانوا قد خصصوه ليكون مختبراً.. وبما أن (آيشا) كانت تتردد على بيتي لتنظيفه وتجهيز الطعام كانوا ينزعجون لو رأتهم.. ثم إنهم صادروا غرفة الحمام الإضافية ليتركوا فيها بعض أشيائهم بعد أن ينتهوا من أعمالهم.. وكانوا ينظفون الأواني بشكل جيد حتى لا يتركوا أي أثر.. وظننت أنهم يفعلون ذلك لأن هذه سموم لو دخلت إلى جسد الإنسان عن طريق الخطأ. هذا تفسير بسيط.. ومعقول لكن الشكوك بدأت تنمو في داخلي كلما نما الزرع حتى قمت بحيلة صغيرة تترك لي شيئاً من المحلول حتى أفحصه ولو أن أدوات الفحص لدي ليست كاملة. وفي اللحظة التي تركوا فيها غرفة الحمام وفيها بعض المحلول قبل أن ينتهوا تسللت مثل لص، ووضعت في إناء من عندي بعضاً منه، وسرقت مظروفاً صغيراً فيه مسحوق بني اللون ثم خرجت

مسرعاً.. وكأنني لم أفعل شيئاً وأخفيت كل شيء في غرفة نومي في خزانة مقفلة. لم ينتبه أحد من الخبراء الأربعة لما جرى.. ولم أصدق أن يغادروني حتى أسرعت لإخراج الأشياء المسروقة وكنت ألهث وراء نتائج.. ولو جزئية.. وبما أنني كما قلت لم أكن أملك الوسائل اللازمة تماماً فقد اعتمدت على المقارنة والاستنتاج واستعنت ببعض المعلومات من الكتب والنشرات.

هل أقول إنني أصبت بصاعقة لما توصلت إليه؟.. لست مبالغاً في قولي.. إن هذه المواد تحمل جينات حيوانية وليس نباتية فقط.. هل هو خطأ من الخبراء أم أن تفاعلات حدثت في هذه المواد فأصبحت على ما هي عليه؟.. لا.. الخطأ غير وارد.. فالعلم هو العلم.. والنتائج فيه محسومة ومحسوبة بدقة.. ولا يمكن أن تحدث هذه التحولات الخطيرة.. إذن فهناك أمور مدبرة ومقصودة.. فهل يعقل هذا؟ لماذا يدمجون الجينات النباتية بالاخرى الحيوانية وما هي النتائج التي ستسفر عنها؟ بل ما هي التفاعلات التي يمكن أن تحدث؟ نبات حيواني.. أم حيوانات مجهولة على شكل نباتات؟ هل ستصبح مادة للغذاء مثلاً؟ كيف سيحصدونها.. وكيف سيستفيدون منها.. أم أنها تجربة وكفى؟ والسكان يعرفون أنها تجربة زراعية بحتة.. بل ربما ينتظرون المحصول ليسد لهم احتياجاً ما.. وإلا لماذا فرطوا بأرضهم هكذا لتجربة غريبة لأناس أغراب؟

آلاف الأسئلة كانت تغزوني في الليل مثل خفافيش تهاجمني.. بل تمتص دمي.. أصبحت قلقاً باستمرار ولا أعرف العيش الهادئ الهنيء.. ومضت أيام على غياب (آيشا) دون أن افتقدها أو أن أسأل عنها.. يا لي من إنسان قاسٍ.. وبلا قلب أيضاً.. (آيشا) تحبني بطريقتها الخاصة.. والحب يشع من عينيها السوداوين البراقتين مثل جوهرتين في الظلام.. لعل هذا الحب عاطفة أمومة منتظرة أو مفقودة.. لعله عطف على غريب معذب مثلي.. أو لعل وراء هذا الحب سراً ما.. المهم أنني متأكد من حب (آيشا) لي.. هذا الحب الذي لا أعرف له سبباً أو نتيجة.. إنني سعيد به وكفى. تمنيت أن تأتي (آيشا)

بعد أن وضعت نفسي في هذا المأزق الفظيع الذي هو الشك بالتجربة.. سأسألها وإن كانت لا تعرف شيئاً.. سآخذ برأيها النقي.. وسأوصيها أن لا تتحدث مع أحد عما دار بيننا.. وأنا واثق أنها لن تفعل. صحيح أن رأيها لن يفيدني بشيء.. ولكني على الأقل أشعر أن إنساناً واحداً يشاركني هذا الهم الذي يلسعني كالنار.

وجاءت (آيشا) في فجر بارد ذابلة مثل نرجسة.. قالت لي إن عشيرتها تريد أن ترتحل من المكان كله.. من وراء التلة.. لتنضم الى العشيرة الكبرى الأصلية التي تضرب خيامها على الحدود وتعيش منذ قرون هناك. وجدت تفسيراً ما لحزن (آيشا) فهي ربما لا ترغب في هذا التغرب الجديد.. فقد عرفت المدن.. والحياة الحضرية إلى حد ما.. وربما لأنها عرفتني. ولا أدري لماذا سألتها:

وموهاد؟ أين هو موهاد؟ إنه لا يزورني.. ولم أره منذ مدة طويلة.

وكأنني ألفت نظرها إلى أن هناك حلاً ما لمشكلتها بأن تتزوج (موهاد)، قالت لي بأسى ظاهر:

موهاد شاب غامض.. لا أحد يعرف ما يقوم به من أعمال لنفقات عيشه.. وهو كما ترى يرتدي ثياباً جيدة.. وجيبه ممتلئ بالنقود.. ثم إنني لم أفكر يوماً بموهاد.. وأنا لا أنظر إليه إلا من خلالك.

قلت مقاطعاً:

وأنا ماذا يمكن أن افعل في مثل هذه الظروف؟ هل يمكنني مثلاً أن أحرر لك عقداً بوظيفة في المركز؟

انتفضت وقالت:

لا.. كل شيء إلا المركز.. إنهم أشخاص منبوذون.. لا يحبهم أحد.. ولا يقترب منهم أحد.. ثم ماذا سأعمل عندهم؟ خادمة!

شعرت بأنها يائسة وأنني ربما وجهت إليها إهانة بطريقة ما. قلت لها:

لا.. أنت لست خادمة.. ولا يمكن أن تكوني كذلك أنت سيدة محترمة في

قومك.. وأنا أحترمك جداً.. يمكن أن تكوني مشرفة.

قالت وكأنني أعطيتها طوق نجاة:

مشرفة على ماذا؟

فكرت قليلاً وقلت:

مشرفة على المزرعة.. ما رأيك؟ مشرفة من طرفي أنا.. أي تساعديننني في المهمات التي أقوم بها.. أو أن تقومي بها أثناء غيابي.

قالت مستدركة:

ولكنك لا تغيب أبداً.. ثم إنني لا أفهم في الزراعة أبداً.

ومع ذلك.. بدأت أفكر أن أتزوج (آيشا). وتساءلت هل الأمر متوقف على رغبتي أو قراري؟ كل منا من عالم مختلف تماماً عن الآخر.. ليس لأننا من قارتين أو شعبين يبعد الأول عن الثاني آلاف الأميال وتفصله بحور ومحيطات.. بل لأنني أجهل تماماً تقاليد هذه البلاد.. وأعرافها.. وموقع المرأة فيها.. يمكن أن يكون مجرد طلبي للزواج من (آيشا) كارثة علي فقد يطردونني.. أو يلاحقونني.. وربما قتلوني.. لماذا إذن لا أصارح (آيشا) بكل ما يدور في ذهني؟

وقررت أن أؤجل كل ذلك حتى نهاية الأسبوع التالي من التجربة الزراعية.. وهو أسبوع هام وخطير كما قال كبير الخبراء.

## الفصل الحادى العاشر:

# حياة جديدة

★ ★ ★

بعد تلك الأحداث المثيرة التي مرت معي أصبحت أفتقد إحساس الأمان.. والتطلع إلى المستقبل.. بل ثقتي في نفسي. إحساس الأمان زال عني منذ أن اقتحم الخبراء بيتي.. وأخذوا ما أخذوه.. وكشفوا ما كشفوه.. فأنا إذن لست منهم أو هم يعتبرونني كذلك. أما المستقبل فقد غامت صورته أمام عيني.. من أنا؟ وماذا أريد؟ وما هي الأشياء التي تصنع حياتي وعلي أن أعيشها أو أرتبط بها حتى الموت؟ هل أنا أمريكي خالص ومخلص للقيم الأمريكية المادية البحتة التي يعيشون من أجلها وأقيس الحياة بمقياس الدولار فقط؟ وهل هذه الأجور التي يمنحوني إياها بل أغروني بها قادرة على أن تنسج حياتي في قادم أيامي؟ وأين هي حريتي وقد وضعوا هذه القيود في يدي فلا أستطيع التصرف دون أوامرهم أو مشورتهم على الأقل؟ وهذه المهمة الغامضة التي أرسلوني بها والتي تتكشف لي عن أسرارها يوماً بعد يوم هل هي ما ينسجم مع طبيعتي؟ لا.. كل هذا مرفوض بالنسبة لي لو رجعت الى أعماقي.. فأنا حر بكل ما في الكلمة من معنى.. ولتذهب أموالهم الى الجحيم.. إن الجحيم الحقيقي هو في داخلي عندما أتعذب.. وعندما أشعر بالوحدة.. وبالضياع.. وبالغدر.. وبأنني فأر في مصيدة. إذن.. علي أن أعيد ترتيب أموري وأنسجم مع ذاتي. بدأت أنظر الى الحياة كما لو أنني أولد من جديد.. أو كأنني هبطت من الفضاء الخارجي إلى هذه الأرض.. فماذا علي أن أفعل؟

طالت محاوراتي مع نفسي.. وكنت أهيم في هذه الأراضي الموحشة حتى ساعة متأخرة من الليل.. ولا أعود إلى بيتي إلا وقد هدني التعب فأنام نوماً متقطعاً تملؤه الكوابيس.. ثم أحاول أن أتجنب أي لقاء مع الخبراء مادامت مهمتي هي الانتظار فقط.. انتظار نمو الحقل.

وأصبحت زيارات (آيشا) لبيتي يومياً تقريباً أمراً عادياً.. فهي تهتم بكل شؤوني لكنها كانت تراقبني مراقبة شديدة بعينيها البراقتين، وتسألني عما أقوم به أثناء غيابها عني، وإذ تعرف أنني لا أخرج عن دائرة البيت، والتجوال في البراري ماشياً أو على حصاني حتى تتنهد وكأنها قد اطمأنت علي.. ومرة سألتني: متى ستعود إلى بلادك؟ فاجأني السؤال وكأنها تقرأ ما في أعماقي.. قلت مذهولاً:

بلادي!! إنني أعيش هنا وكفى.. وكل بلاد يشعر الإنسان بالانتماء إليها تصبح بلاده.

نظرت إليّ بطرف عينيها الساحرتين، وقالت:

وهل تشعر بأي انتماء الى هذه البلاد؟

ولم أستطع أن أجيبها بل نكست رأسي وقلت في نفسي: "هذا ما يجب أن أعرفه أنا أولاً". ولم تكن تنتظر الجواب بل وضعت آخر لساتها على البيت ثم اختفت. ظل السؤال يخفق في أعماقي مثل طائر مكسور الجناح فصممت أن أختبر مشاعري، وأكون واثقاً من أفكاري قبل أن أقوم بأي تصرف، ولو تأكدت أن عليّ العودة إلى بلادي كما قالت (آيشا) فسوف أقطع علاقتي معها ومع جماعتها.. بل مع موهاد أيضاً.

لكن موهاد.. وفي هذا الاضطراب النفسي الذي أعيشه كان أيضاً يتقرب جداً إليّ.. ويحاول أن يمضي أكثر أوقاته معي.. ويفضي إليّ بأسراره ومكنون نفسه.

قال لي ذات مرة:

سألتني يوماً ما معنى اسمي (موهاد) ولكنك لم تسألني عن قصتي مع

هذا الاسم!

قلت ببراءة:

لم يخطر في ذهني ذلك أبداً.. إنه اسم وكفى.

قال:

لا.. إن لاسمي قصة عجيبة.. فقد انفصلت عن أسرتي التي ضاعت مني بعد أن هاجرت بسبب الحرب وكان اسمي (محمد).. نعم هذا هو الاسم الذي أحبه وأعتز به.. وكنت فتى صغير السن عليّ أن أعمل لأعيش، فاشتغلت في معسكرات لتدريب الجنود.. كانوا أجانب.. ولم أكن أدري الغرض الذي يدربون له هؤلاء الجنود.. كل ما يهمني هو أن أقبض أجري في آخر اليوم أو آخر الأسبوع لأشتري حاجاتي الضرورية. وذات مرة طلب مني المدرب العام وكان أجنبياً أزرق العينين أشقر أن أذهب برزمة أشياء الى مدرب آخر في منطقة أخرى على أن يعطيني أجراً مضاعفاً. لم أكن أعلم ما في الرزمة ولم أهتم بذلك مادمت سأقبض مضاعف أجري والشتاء على الأبواب وأنا بحاجة إلى ثياب سميكة وجديدة. قال لي: إن اسمك ثقيل على اللفظ.. سأناديك (موهاد).. فاذهب بالرزمة وأنت بهذا الاسم وعد إليّ بإشعار أنها وصلت. فهمت.. ولم أدقق في الأمر.. بل قلت في نفسي: ماداموا أجانب فليكن اسمي موهاد.. فهذا مقبول لديهم أكثر.. ماذا أقول لك؟ كان في الرزمة أنواع من المخدرات.. لم أفتحها بالطبع.. لكني اكتشفت فيما بعد أنها كذلك.. وكان اكتشافها على يد والد (آيشا) قبل أن ينزحوا عن قريتهم المدمرة.. ناداني وأنا في طريقي لإيصال الزرمة وقال لي: إذا فقدت إحساس الحذر، فهل فقدت حاسة الشم؟ إنها مخدرات. ولما أصر على أن يفتح الرزمة أمامي لم أمانع.. وبالفعل كانت مخدرات ثم أعدنا صرّها وإحكامها من جديد. وبعد أن أوصلتها استغنوا عن خدماتي نهائياً سواء في إيصال الرزم أو في العمل في المعسكر. وهكذا تشردت.. وقمت بأعمال كثيرة.. في الدكاكين.. وفي الفنادق.. وفي محطات القطارات حتى

صادفتك.. هل تنسى ذلك اليوم؟

قلت له:

إذن.. فأنت مسلم.

قال:

كلنا هنا مسلمون بمذاهب مختلفة.. لماذا تستغرب؟

قلت:

كنت أظنكم بوذيين مثلاً أو هندوس.. وإلا لماذا وجدت الآثار البوذية لديكم؟

قال:

كان ذلك في التاريخ القديم.. تاريخ آسيا الذي تبدل وتغير في الديانات حتى جاء الإسلام. تصور أن المغول أنفسهم كانوا قبائل وثنية ثم أصبحوا جميعاً مسلمين. أنا لا أعرف التاريخ.. ولكن هذا ما سمعته من جدي رحمه الله.. ثم من أبي.. أين أنت يا أبي؟

والتمعت الدموع في عينيه وقد بدا عليه التأثر ثم أضاف:

لو أعرف أين ذهبت أسرتي الآن لذهبت إليها إذن.. لقد كنت أبحث في المجهول، فقد جبت كل القرى التي يمكن أن أجدهم فيها ولكن دون جدوى.. إنها الحرب المدمرة يا صديقي.. حرب خفية لا تعرف مَنْ يديرها ولا ضد مَنْ. والمناطق الجبلية غير آمنة في الوصول إليها.. يمكن أن تكون في أمان بحد ذاتها وأسرتي بينها لأن كل قبيلة تحمي القرى التي فيها أبناؤها. ليتني أراك يا أمي.. وأنتما يا أخوي الصغيرين.. وأنت يا أختي (آية).. وأبي يناديك (آية الرحمن).

ووجدت من المناسب أن أغيّر الحديث لأهدىء أحزانه العميقة فقلت ممازحاً:

أنت كبير إذن بالنسبة لإخوتك.. تستحق أن تكون أباً بدورك.

لملم دمعته وقال:

ولم لا.. لو كان لي بيت مستقر.. وعمل مثلك لفعلت. الفتيات عندنا في غاية الأخلاق والحشمة والأدب ولا يشترطن فيّ قبول الشاب إذا ما تقدم للزواج إلا أن يكون مستقراً وله عمل.

قلت ممازحاً أيضاً:

هذا إذا أعجبهن الشاب.

عند ذلك ضحك وقال:

طبعاً.. وهذا لا يستدعي علاقة قوية.. يكفي أن تراه لمرات وتحدثه حتى تقرر إن كان يعجبها أم لا.. إن كانت ستتزوجه أم لا؟ إنهن ينفرن من كبار السن أو الذين يتزوجون للمرة الثانية أو الثالثة مع الاحتفاظ بالزوجة الأولى أو الثانية أو الاثنتين معاً. صحيح أن هذا له أساسه في الإسلام لكني أعتقد أنهم يستخدمون هذا الحق بشكل غير مناسب.

ولم أجدني إلا مندفعاً وراء الحديث لأقول له:

وما المناسب في رأيك؟

قال وقد اطمأن إليّ كثيراً وتبسط في الكلام:

المناسب يا عزيزي أن مشروعية هذا تأتي من الضرورة.. كأن تصبح الزوجة الأولى مريضة مثلاً أو عاجزة عن أداء واجباتها الزوجية.. أو هي لم تنجب الأطفال. فماذا يفعل الرجل؟ يتزوج.. لكنه لا يرمي بزوجته أو زوجاته الى الشارع بل يكون مسؤولاً عن إعالتهن في المرض أو الشيخوخة أو عدم الإنجاب فما رأيك؟

وفكرت فيما قاله، فصمتُ وأضاف:

آسف إذا انزعجت من كلمة عزيزي.. فأنا لا يحق لي ذلك.. لكنني أعتبرك صديقي وعزيزاً جداً عليّ.

قلت:

بل أنت في الواقع صديقي.. منذ أن تعارفنا في القطار. أم أنه كان علي أن أعلن لك ذلك؟

وضحكنا معاً ووجدتها فرصة لعدم إبداء الرأي فيما يحدثني به عن الإسلام.. لكنني في الواقع كنت متشوقاً أكثر لأن أعرف المزيد.

قلت له بحماسة لا أعرف مصدرها:

اسمع يا موهاد.. أو يا محمد كما تحب أن يناديك أهلك وأصدقاؤك تستطيع أن تعتبر بيتي هو بيتك.. وأن تسكن معي خلال هذه المدة المتبقية لي في بلادكم.. ثم بعد ذلك تستطيع أن تستأجر البيت أو ربما تشتريه حسب ظروفك.

قال:

إذن.. فأنت عائد الى بلادك لا محالة.. هذا مؤسف.. أنا أحزن لهذا الخبر ثم لندع شأن البيت.. وشرائه أو استئجاره هذه أمور معقدة. قل لي ألن تتزوج عندما ترجع الى بلادك؟

وقبل أن أجيب قال وهو يخطو نحو الباب كأنما يريد أن يغادرني:

لكن فتياتنا لا يهربن مع أحد قبل الزواج ربما يفعلن ذلك بعد الزواج هرباً من قسوة الحياة هنا ذلك لأن الإسلام دين حر.. ولا يمكن لفتاة أن يغصبها أحد على الزواج ممن لا تريده.. الكلمة النهائية لها.. وإلا لا يعقد قران.. ولا يتم زواج.

قال هذا ثم ذهب.. وبقيت في حيرة مما سمعت.. بل في حيرة من أمري مع موهاد.. هل يريد أن يفهمني تعاليم الدين الإسلامي بطريق غير مباشر وصولاً للحديث عن (آيشا)؟ أم يريد أن يجعلني مسلماً؟ أم أنه يسهل علي أمر الزواج من (آيشا)؟.. أسئلة لم أجد لها جواباً ولا تفسيراً.. لكنها أشعرتني برغبة عميقة في أن أشق طريقاً جديداً في خيارات لم أكن أحسب حساباً لها، فأخذت أقول لنفسي: "ولماذا لا أتزوج آيشا وأعيش في هذه البلاد مع ناسها البسطاء الطيبين بسماحة نفوسهم.. أو يمكن أنها تحبني كما قال موهاد؟! إذن فالأمر لا يستدعي إلا موافقتها وأتزوجها ونجابه مصيرنا في الحياة معاً".

وتألق نجم الأمل في أعماقي بعد كل السواد الذي تركته قصة البذور وأكياس القمح المحروقة والحقل العجيب الذي أرعاه حتى فترة مجهولة لا أعرف ماذا تخبئه لي وراءها!

★ ★ ★

انقطع عني موهاد عدة أيام شعرت معها بالوحدة وكأنني مقطوع في صحراء.. ورغم أن (آيشا) كانت تنتظم في زياراتها لي وحنانها الصامت الذي تسكبه في قلبي إلا أنني كنت اشعر أنها تخفي سراً ما.. وما دعتني إلى زيارة والدها حتى سألتها عن حاله وهل يرغب في زيارتي له؟؟ قالت:

أبي مسافر.. ذهب الى المدينة في أمر هام.. ولم يعد منذ يومين.. سأبلغه رغبتك في زيارتنا.

واستدركت قائلة:

بالنسبة لنا لا مانع من زيارتك في أي وقت.. ولكن هذا سيلفت نظر الآخرين بزيارتي إليك بين يوم وآخر. أنا واثقة بك أكثر من نفسي.. أنت مهذب ولطيف وتراعي ظروفنا الاجتماعية.

قلت وقد شعرت بأن جوابي غبي:

وأنا لا أحدث أحداً عن زياراتك لي.

ضحكت بعمق وظهرت أسنانها اللؤلؤية وقالت:

أعرف أنه لا يزورك أحد إلا موهاد.. حتى الخبراء لم يعودوا يزورونك.

قلت:

بالمناسبة أين هو موهاد هذه الأيام؟

قالت:

أعتقد أنه ذهب مع أبي في مهمة مشتركة.

ولم أترك مجالاً لأفكاري أن تذهب في أن الشيخ وموهاد يتاجران بالمخدرات.. لابد أنه أمر آخر.. أمر آخر.

وشعرت (آيشا) أنني غائب عنها مع أفكاري فقالت:

– موهاد يريد أن يعمل كمشرف زراعي في قرية قريبة. إنه عمل ثابت.. لعله ذهب من أجل ذلك.

ودوت الكلمة في أذني: مشرف زراعي.. مشرف زراعي. ماذا يعني هذا؟ هل له علاقة بكشف أسرار الحقول التي إشرف عليها أنا؟

★ ★ ★

انتظرت حتى عاد الشيخ والد (آيشا) من سفره.. لكن موهاد لم يعد معه فقد استلم عمله كمشرف زراعي كما قال. ولكن على ماذا؟ هل على حقول الخشخاش التي يزرعون نباتها بكثرة من أجل المخدرات؟ أثار ذلك فضولي.. إلا أن دافعي لرؤية الشيخ كان الأقوى.. لماذا؟ لا أدري.. هل للتقرب منه من أجل (آيشا)؟.. على أي حال أنا بحاجة الى موهاد ليكون وسيطاً بل مترجما بيني وبين الشيخ.

قالت (آيشا) إنهم يرحبون بي.. وقالت في الوقت ذاته إن موهاد سيمضي عطلاته الأسبوعية معنا ثم استدركت وقالت:

أصد معك.. هذا إذا كانت الطرقات آمنه فمكان عمله بعيد والمناوشات بين المتحاربين من القبائل عادت من جديد. صحيح أنه غير مقصود بالاعتداء عليه من الطرفين لكن الرصاص عندما ينطلق من أماكن بعيدة يصيب أي أحد.

سألتها:

وعلى ماذا سيشرف؟ أعني أي مزروعات؟

نظرت إلي نظرة طويلة وكأنها فهمت ما أعني وقالت:

– مزروعات موسمية من الخضراوات ولو أن في تلك الحقول أشجار نخيل وكروماً. الحاجة تدفعنا لأن نستغل أي مساحة من الأرض قابلة للزراعة.. فاستصلاح الأراضي صعب جداً والمياه قليلة لأن القنوات الموصلة للماء المنسكب من ثلوج الجبال قد تعطلت كلها.. هذه هي الحرب أيها الصديق.

ولفظت كلمة صديق بعذوبة وكأنها تقول حبيب أو كأنها تفضي لي بسر.

★ ★ ★

وفي لقائي مع الشيخ كان الترحيب بي فائقاً وانضم إلينا زوار كثيرون كانوا ينظرون إليّ وكأنما بنظرة خاصة أو هكذا شعرت. أما (آيشا) فكانت قليلة الحضور بيننا.. لكنها بدت هادئة جداً ومطمئنة وتنظر إليّ وكأنها فخورة بي.. وكلما دخلت أحسست أن موجة من الحب تدخل معها وهي تسحب ثوبها الطويل الأرجواني.. وبدا وكأن الجميع يحبونها ويحترمونها لذاتها وليس لأنها ابنة الشيخ. وطافت علينا بأكواب من مغلي الأعشاب وبقهوة عربية وبفطائر صغيرة محشوة بالقشدة.

وفي طريق عودتي مع الغروب كانت سعادة غامضة تغمرني فقررت الرجوع مشياً على الأقدام دون أن آخذ حصاني وقد تركته في رعاية أسرة الشيخ منذ حادثة الخبراء. في الطريق.. فجأة قررت العودة عن طريق حقل النباتات العجيبة.. ورغم أن الليل في أوله إلا أنني شعرت بانقباض شديد في صدري يشبه الخوف.. أو لعله الخوف من شيء مجهول.

خيل إليّ أنني أسمع همهمة خافتة كأنها أنين بل خيل إليّ أنني أشم روائح غريبة كما لو أنها مفرزات حيوانية. وتجاهلت ذلك.. وما إن وطئت أقدامي متراً واحداً من الحقل حتى لمحت شيئاً غريباً وكأنها رأس حصان دون عنق يتدلى فوق الأرض. جمعت شجاعتي وأصدرت صوتاً لعله يتحرك نحوي ولكن دون فائدة.. اقتربت فوجدت نبات بطيخ قد طرح بطيخة ذات لون أقرب الى السواد فوق ساق غليظة لا تُعرف لنبات البطيخ.

شعرت بالدم يجمد في عروقي ما هذا؟ نبات له خصائص جديدة ليست لما عرف لفصيلته فسوق نبات البطيخ هي نحيلة عادة. تحركت بحذر شديد فإذا بأغصان متينة وقوية وطويلة وفي نهايتها حبات كبيرة تشبه في شكلها الفاصولياء.. وهي تتمايل دون أن يهزها أحد.

تذكرت تلك القصة التي كانوا يروونها لنا ونحن صغار عن الفاصولياء

العملاقة التي ترمي بذورها لذلك الولد الطيب فأنبتت أشجاراً من الفاصولياء تسلق فوق إحداها حتى وصل إلى بيت الوحش العملاق. أي وحش ينتظرني فيما لو لامست هذه الحبات.. وأي ساحرة هي التي دفعت لي بتلك البذور حتى زرعتها بيدي.. وما شأن سائر النباتات.. هل كلها مخالفة للطبيعة وتنمو بشكل شيطاني تمتزج فيه عناصر حيوانية مع نباتية؟ وما يدريني أنها جينات حيوانية.. ألا يمكن أن تكون بشرية أيضاً؟ يا لتلك الحزم من نباتات غزيرة لم أعرف نوعها لأنها تشابكت بعضها مع بعض في نمو طائش وغير اعتيادي. وتساءلت أين تلك الجزرة التي بدت لي مثل لسان بشري؟ نظرت حولي في الحقل وأقدامي مسمرة وكأنني لا أريد أن أتجول فيه حتى بدت لي أوراق داكنة الخضرة كبيرة الحجم فقلت: "إذن هي عادت الى الأرض تحتاج من يقتلعها". أما النبات الذي بدا لي مثل أصابع يد فقد تضخم حتى أصبح بأضعاف حجمه.. ولما لامسته انفجر بسائل لزج كثيف.. ولكن ما أدخل الرعب الفظيع إلي فهو تلك الحبات من الطماطم التي بدت مثل بطون منتفخة.. بعضها قد أفرغ ما في جوفه وبعضها ازداد انتفاخاً.

تصدع رأسي بألم رهيب.. وأحسست أنني على وشك الإغماء.. ولكن لو حصل ذلك فمن سينقذني من أيدي هذا الشيطان الذي دخل مع بذوره الى كل تلك النباتات؟

تماسكت وأسرعت الخطى من أقرب طريق حتى وصلت الى الطريق الترابية فلم استطع مواصلة السير فوقعت على الأرض مغشياً علي، ولم أستيقظ إلا وأنا في سريري و(آيشا) إلى جانبي تقرأ لي بلغة لا أفهمها كلمات أو أناشيد برنين عذب أنعش روحي. قلت:

ما الذي تقرئينه يا آيشا؟ هذه ليست لغتكم!!

قالت:

نعم.. إنها العربية.. وهذا من القرآن الكريم.

قالت ذلك بخشوع وهي تمسح فوق رأسي وتغمض عينيها وتقرأ.. ثم

تفتح كفيها وتقرأ وتمسح وجهها.. وما لبثت أن ذهبت الى المطبخ وعادت بكاس ماء ممزوج بسائل أصفر باهت.

قلت:

ما هذا؟

قالت:

- ماء ممزوج بعطر الريحان لكنه يشفي.. قرأتُ عليه عدة مرات آية الكرسي.

قالت ذلك ثم أدركت أنني لن أفهم ماذا تعني فأضافت:

- آية من القرآن الكريم لها خصوصية واثر بالغ في حالات الشدة والمرض أو المأزق الذي يقع فيه الإنسان.

شربت وشعرت بارتياح شديد. قلت:

وما الآية؟ اشرحي لي..

وأفهمتني بسرعة حتى لا ترهقني فأثارت لدي شوق لا يوصف لأن أتعرف الى هذا القرآن، قلت:

وما السبيل إلى قراءة القرآن كله؟

قالت:

إما أن تتعلم العربية.. وهذا صعب.. أنا نفسي لا أعرف بالعربية إلا بعض السور الصغيرة والآيات.. أو أن تبحث عن ترجمة له باللغة الإنكليزية.

وانقطع الحديث بيننا بعد أن شعرت براحة عميقة تسحبني إلى عوالم من الطمأنينة فتركتني (آيشا) لأنام وانصرفت ولم أكن قد سألتها كيف عثروا

## الفصل الثانى عشر:

# الأيـام الأخيـرة

عليّ وأتوا بي إلى بيتي؟!!

★ ★ ★

بعد تلك التجربة الرهيبة في حقل النباتات لم يعد لدي رغبة في أي شيء.. وانزويت في بيتي لا أحد يؤنسني أو يخفف عني سوى زيارات (آيشا) التي أصبحت سريعة وخاطفة. حائر ومعذب أنا.. بل ضائع في هذا البحر من الألغاز الذي قذفتني الأقدار فيه.

وبدأت أجمع أشيائي كمن يستعد للرحيل.. دون أي خطة لهذا الرحيل. من أين أبدأ؟ من رسالة أوجهها لجو المشلول بأنني أستقيل من هذا العمل الذي كلفني به؟ وليقطع راتبي ويرسل لي موافقته على ذلك.. والخبراء ماذا سأقول لهم لو ظهروا لي؟ أنا في الواقع العملي المسؤول المباشر عن الحقل المشؤوم.. وكل الوثائق باسمي.. ولو حصلت كارثة أو اعتدى السكان علي فهل سينقذونني؟ أعتقد لا. كما أنني لم استكمل بعد معلوماتي حول تلك الزراعات المشبوهة ولا من يقودها أو الغاية الحقيقة منها وكذلك نتائجها أو الكوارث التي ستأتي بها؟؟

ولمعت في ذهني فكرة أنهم لم يعرفوا أن ارتباطي الأساسي هو مع (جو) وأن التقارير تذهب مني إليه مباشرة.. والنتائج سيكون (جو) المسؤول عنها وأنا أتصرف حسب تعليماته.. لعله سيوجهني أن آخذ عينات من كل نبات وأرسلها له وليذهب الحقل إلى الجحيم.. ولتفعل هذه المزروعات الشيطانية ما تفعله في الناس هنا فيما لو تناولوها أو زرعوها في الأرض نفسها من جديد

بينما المواد الفظيعة المؤذية لا تزال في التربة.. وقد تخصب.. وتعود بأذى مضاعف.. وهذه بلاد متخلفة.. ولن يخطر في بالهم أن جريمة كبرى ارتكبت في هذه الأرض.. ولكن (جو) أصبح مشلولاً ولا يستطيع حتى أن يكتب أو يتكلم.

إذن.. فأنا وحدي في مواجهة هذه الجريمة النكراء، وأنا وحدي المسؤول عن قلعها من جذورها. ودون تردد أرسلت لجو عن طريق (ميريام) رسالة ساخنة عاجلة ولتفعل بها (ميريام) ما تشاء. قلت في الرسالة إنني منذ اللحظة غير مسؤول عن أي شيء في حقل النباتات بعد أن اختفى الخبراء، وأني مسافر الى دولة مجاورة بعد أسبوع. أما النتائج التي كان ينتظرها (جو) فقد اضطررت لتزويرها وأن أقول له إن التجربة فشلت.. ولا يوجد في الحقل أكثر من نباتات قزمة لم ترتفع عن التراب إلا قليلاً وغير معروفة في أنواعها، وان القوافل مرت من فوقها فأعدمتها، وكذلك فإن السكان ردموها بالحصى والحجارة وجعلوها طريقاً للتنقل بين منطقة واخرى. وأضفت أن المنطقة كلها مهددة بالتهاب العنف بين الفصائل المتحاربة وأن عليّ أن أسرع بالرحيل.

وشعرت بنوع من الراحة بعد أن أرسلت الرسالة بالبريد الالكتروني كما لو أن كل ما ذكرته كان قد تم فعلاً أو أنه صحيح وأنني مسافر.

عاد موهاد في العطلة الأسبوعية وكنت لا أدري ماذا أفعل بها بعد أن غدت أيامي كلها عطلات وانتظارات. عاد موهاد وهو في غاية السرور.. ممتلئاً بالصحة والنشاط. وكانت المفاجأة الكبرى أن وضع لي على طاولتي نسخة من القرآن الكريم باللغة الإنكليزية. هل هي مصادفة أم أن هناك سراً معقوداً بينه وبين (آيشا)؟! مهما يكن الأمر فقد تلقيت الهدية وكأنها من السماء.. ولم يطل موهاد زيارته لي.. ولم يرغب في المبيت عندي بل قال إنه عائد الى مركز عمله.. وكأنه يريد أن يتركني مع الكتاب المقدس.. ولم ألح عليه بالبقاء عندي وكان قد وعدني بذلك.. وما إن غادرني حتى استغرقت في

القراءة.

★ ★ ★

الخبراء لم يعودوا يأتون الى منزلي.. بل إن أحداً لم يعد يراهم بعد حادثة الحريق تلك وبعد أن أثاروا ريبة السكان المحليين لدى زراعة أنواع غريبة من النباتات في ذلك الحقل العجيب.. ترى هل أصبحوا يخشون الظهور في الأماكن العامة خوفاً من الأهالي الذين ذهبت أحلامهم أدراج الرياح؟ أم أنهم يخططون لمشاريع اخرى جديدة أكثر شراً وإثارة للشك؟.. ولكن أين يمكن أن يكونوا قد ذهبوا؟.. أنا لم أحاول العثور على أي منهم وإلا لكنت توجهت الى مركز إقامتهم أو الى المختبر إلا أنني لم أفعل.

وفجأة لمع في ذهني خاطر.. لماذا لا أخرج في رحلة البحث والاستقصاء هذه؟.. بل إنه يجب علي أن أفعل.. لكسر أطواق الدوائر المغلقة التي أصبحت حبيسها.. لابد أن افعل شيئاً.. ومادمت قد حررت نفسي على الأقل من الالتزام مع (جو) فلماذا لا أحرر نفسي من جماعته أيضاً.. ومن تلك الأسرار التي تحيط بي من كل جانب؟

في مساء ذلك اليوم خرجت متوجها نحو المختبر وأنا أرتدي ثياباً خفيفة وانتعل حذاءً رياضياً وأحمل معي ضوء بطارية.. وحملت معي أيضاً سكيناً استخدمها كسلاح أدافع به عن نفسي لو تعرضت لأي مفاجأة ما دمت لا أملك مسدساً أو أي أداة اخرى. توجهت نحو مقصدي من طرق فرعية وكأنني متسلل دون أن يراني أحد. وما إن وصلت حيث المختبر حتى وجدت الظلام يلفه ولا أثر لأحد في الداخل.. وقفت قليلاً وأنا أركز فيما يجب علي فعله.. ولم ألبث أن توجهت نحو الباب الرئيسي للمكان.. بالطبع لم أكن أملك مفتاحاً له فالخبراء لم يعطوني واحداً.. عالجت الباب بهدوء بالسكين وإذا بي أفتحه.. ودخلت.. المكان مظلم وموحش ولا نبض فيه سوى ما ينبعث من ضوء البطارية الذي أخذت أسلطه على زوايا المكان في محاولة لإعادة استكشافه بعد ما أصبح على ما هو عليه.

لم أجد في المختبر تلك الكمبيوترات التي كانت مبثوثة في أغلب أرجائه.. ترى هل أخذوها الى مكان آخر؟!.. وأدوات المختبر التي كانوا يستعملونها في تحضير محاليلهم وإجراء تجاربهم على نطاق ضيق أين اختفت هي الاخرى؟!.. والأوراق والملفات لم أجد أي منها في الأدراج أو الخزانات التي أغلقت كما لو أنها تحبس في جوفها الأسرار.

وقفت حائراً وسط أسئلتي ودهشتي واستفساراتي.. وعوضاً عن أن أبحث عن أجوبة تطفيء لهيب تساؤلاتي قررت أنِ أبحث عن أي شيء يفيدني في بحثي العبثي هذا.. أو أي شيء يقودني إلى مفتاح ما.. أو جواب ما.. أو نتيجة ما لكل ما يدور في العلن أو في الخفاء.

بحثت طويلاً ولكني لم أجد شيئاً مما كنت أتوقع العثور عليه.. فجلست على الأرض بعد أن أطفأت ضوء البطارية التي أخذت تخفت تدريجياً وكأنها تعكس خفوتُ حماستي معها. الظلام يلفني من كل جانب.. ولا بصيص لضوء أمل يتسلل إلى زوايا نفسي التي أصبحت محطمة.

زمن لا أعلم مدته انقضى وأنا على هذه الحال.. ثم نهضت واقفاً بعد أن أدرت مفتاح ضوء البطارية من جديد وكنت قد قررت الانصراف واللاعودة إلى هذا المكان. وقبل أن أتوجه نحو الباب الخارجي صدرت عني التفاتة عن غير قصد نحو طاولة مكتب مهملة في الركن فالتمعت ورقة صفراء اللون تحت قوائم المكتب.. فلم يكن مني إلا أن اندفعت لأتلقفها وكأنني غريق يستنجد بقشة. نظرت في الورقة طويلاً وقلبتها فلم أجد شيئاً مكتوباً عليها.. وعدت إلى خيبة أملي من جديد.. أوشكت أن أرمي بها وأمضي الى سبيلي.. ولكني لم أفعل بل طويتها بعناية ودسستها في جيبي.. وخرجت دون أن أعلم أنني حملت في جيبي الصغير مفتاح لغز كبير كبير.

★ ★ ★

في يوم مشؤوم آخر من سلسلة تلك الأيام الرهيبة التي عشتها مفصولاً عن كل ما حولي من ضجيج الحياة التي لا تهدأ علمت من أحد السكان

المحليين أن حالة تسمم مجهولة المنشأ قد أصابت بعض الناس فنقلوا الى المشفى الوحيد في المنطقة ليتلقوا العلاج.

لا أعلم لماذا أضطرب كياني وأنا أستمع الى الرجل وهو يحدثني عن تلك الواقعة.. فقلبي يحدثني أيضاً بنذير شؤم سيحل بنا جميعاً.. ولكن هل لتجاربنا المجنونة تلك علاقة بما يحدث؟!.. ربما.. أجل ربما كان للأمر علاقة ما.. ترى هل تناول السكان بعض من غلالنا في طعامهم؟.. ولو فعلوا فهل سيصيبهم الأذى حقاً؟!.. أنا لم أعثر على جواب لاختفاء العلماء مع أجهزتهم وأدواتهم فكيف لي أن أعثر على جواب لما يسري بين الناس؟

حاصرتني أسئلة ودوائر استفهام عديدة.. ولم أستطع أن أربط بمنطقية مقبولة بين تلك الأجزاء المبعثرة من معلوماتي وملاحظاتي حتى جلست وأنا أمسك بالورقة الصفراء اقلبها واشتهي لو أنها كانت مرصوصة بسطور الأجوبة.

وفجأة لمحت في طرف الورقة آثار كلمات كانت قد كتبت على صفحات أخرى فانطبعت أشكالها محفورة على الورقة، اهتز جسدي كغصن شجرة تحركه ريح مباغتة.. نظرت ملياً في الحروف المحفورة فلاحت لي كلمات استطعت أن أقرأ بعضها، فسارعت اخرج من أدراجي حبراً جافاً أسود اللون نثرته بدقة فائقة فوق سطح الورقة الأملس ليسقط بعض منه في تجاويف الحروف التي لا لون لها.. ولم أكتف بذلك فعرّضت الورقة لبعض الرطوبة المنبعثة من بخار ماء فإذا بالكلمات تتضح أمامي، وقرأت: "أذكياء في عالم للفقراء _كلمة السر _موقع خاص للتجارب والعلماء حصراً".

لغز جديد آخر.. وهل أنا بحاجة لمزيد من الألغاز؟!!..

ولكن.. هذا ليس في الحقيقة لغز.. بل هو المفتاح.. أجل.. هل يمكن

للمصادفات البسيطة أن تأتي بالحقائق العظيمة؟.. الأمر إذن يستحق المحاولة بكل جدارة.. أدرت مفتاح كمبيوتري الشخصي ودخلت إلى صفحات الإنترنت أقلبها وأنا في عملية بحث محمومة عن عناوين جميع الشركات التي تعمل في مجال الهندسة الوراثية لعلها تقودني الى مكان ما. بدت محاولاتي عبثية.. إذ كيف لي أن أعثر على موقع مجهول على شبكة المعلومات بين ألاف المواقع المشابهة؟!

وكوميض خاطف لمع في ذهني اسم الشركة البيوتكنولوجية الأم التي دست إنتاجها من البذور المحسنة وراثياً في هذه الأصقاع.. استنفرت كل طاقاتي الذهنية وكل معلوماتي في مجال الكمبيوتر والإنترنت في محاولة للوصول الى الموقع الخاص بتجارب العلماء هذا مستخدماً كلمة السر التي عثرت عليها بهدف اختراق الموقع.

ومثل إشراقة الشمس الأولى بعد طول ظلام انفتحت أمامي تلك الصفحات.. وكأنني تحولت إلى كاهن من زمن قديم قديم يفتح أبواب المعابد المحرمة حيث قدس الأقداس بأمواج الصوت إذ ما نطق كلمة السر.

تسمرت فوق كرسيّ كتمثال من شمع.. وتجمدت يداي فوق أزرار الكمبيوتر.. بينما اتعست حدقتا عيني وأنا أقرأ.. وأقرأ.. ويا لهول ما قرأت: " لازالت الطريق طويلة أمام العلماء في مجال تطبيقات الهندسة الوراثية على النبات.. ومازلنا بحاجة إلى الدليل العلمي فيما يتعلق بمخاطر البيئة غير المعلومة من جراء استخدام البذور المحسنة وراثياً، وظهور جينات جديدة مجهولة العواقب نتيجة اتحاد الجينات في اللعبة الوراثية، جينات لم تكن لتظهر في الطبيعة لولا تدخل الإنسان. وبالمقابل فقد تم رصد أكثر من (٢٥٠) مرضاً يصيب البشر نتيجة لذلك.. والأسباب حتى الآن ما تزال مجهولة".

جينات جديدة لم تكن لتظهر لولا تدخل الإنسان.. يا إلهي.. هل هو الإنسان أم أنه الشيطان نفسه؟..

وصرخت بأعلى صوتي: لا.. لا.. كيف يمكن أن يطبقوا تجاربهم على البشر من سكان هذه البلاد والأبحاث غير مؤكدة والضمانات غير محددة والتأثيرات على المدى البعيد غير معروفة؟؟!

وعدت لأقرأ كلمات لم أعد أميزها: "تعدل البذور والخضار لإنتاج لقاحات لبعض الأمراض المستعصية والثمار هي الموز الجيني، والتبغ المضاد للتسوس، والطماطم المضادة لداء الكلب، والأرز المضاد للعمى، وثمار اخرى يقطفها سكان العالم الثالث والدول النامية والأماكن البعيدة الاخرى".

لم أعد أستطيع قراءة المزيد.. أغلقت الصفحات وأدرت الأزرار لتعود شاشة الجهاز أمامي سوداء صامتة، ولتختفي من أمام عيوني الباكية تلك الكلمات الرهيبة.

أي جريمة يقترفها الإنسان بحق الإنسان.. إنها الحقيقة الناصعة إذن فيما يجري من أمور وما يدور في الخفاء.. لقد احترفت تلك الشركات الكذب وقامت بإخفاء أسرارها عن عمد.. إنه التلوث الجيني بما يفوق التلوث النووي والكيماوي.. ما لا يمكن تصحيحه بسهولة.. وما سيصب على الأجيال القادمة من آثار لا يد لهم فيها. لماذا يصاب الإنسان بالجشع هكذا والعالم والطبيعة تحفل بأنواع نباتية هائلة لم يستثمر أغلبها بعد.. لماذا يهدد الإنسان الأرض وفيها مستودع نباتي زاخر لم يكتشف بعد؟

تلك الليلة نمت والكوابيس تداهمني وليس لدي أي فكرة عما يجب أن افعله.

★ ★ ★

عند الصباح أحسست أن ثورتي هدأت.. وأن ذهني بدا صافياً لأنه يجب أن يكون الأمر كذلك حتى أتخلص من الورطة التي أنا فيها فأنقذ نفسي وأنقذ هؤلاء المساكين من حولي. وقفت أمام النافذة فلمحت (آيشا) تتجه نحو بيتي وهي تحمل أطباقاً من الطعام وكوزاً من اللبن. بدت أمامي بثوبها الطويل الذي يبرق تحت الشمس وملامحها الجميلة مثل فتاة معبد من قصة

أسطورية وبين يديها قربان مقدس.. هل يمكن أن أجعل (آيشا) وهؤلاء القوم البسطاء المحبين ضحايا لتلك التطبيقات العلمية الشيطانية؟.. لا.. إنني أحبهم ولا أقول أشفق عليهم لأنهم أناس أذكياء جداً ولكن أنقياء.. ولم يصل إلى علمهم ما وصل إليه العلم الشيطاني الذي يجعلهم حقول تجارب.

دخلت (آيشا) وهي تضحك ووضعت الطعام واللبن أمامي فأحسست أنني مرتبط بها أكثر من أي إنسان في العالم وأكثر من أي وقت مضى.. فقلت لها:

إنني لست جائعاً ولا أشعر بحاجة الى اللبن.

فانسلت إلى المطبخ لتضع أشياءها كما لو أنها تقول لي: هذه ملكك وتصرف بها كما تشاء. وتبادلنا الأحاسيس أكثر مما تبادلنا الكلمات وقبل أن تنسحب قالت لي إنها مضطرة للرجوع لأن هناك بعض الأطفال المرضى من أقاربها وهي تريد أن تعتني بهم. فانتفضت كالملسوع وسألتها:

ما مرضهم؟

قالت:

إنهم يتقيئون وقد أصابتهم أعراض مرضية في جهازهم الهضمي.

فأمسكتها من كتفيها وسألتها بانفعال:

ماذا أكلوا؟ هل أكلوا شيئاً من حقل الخضار والنباتات؟

فأفلتت مني وأشارت بيديها أنها لا تدري.. فاستجمعت شجاعتي وقلت لها مقرباً الفكرة إلى ذهنها:

هذه أرض مسمومة يا آيشا.. بالحروب وربما تسربت إليها مواد ضارة من الألغام التي انتزعت منها وفي هذه الحال تتسرب الشوارد إلى النبات المزروع فيها.

قالت لي:

هذا ما ظنه أبي وبعض رجال القبيلة فمنعوا الأطفال من أن يقتربوا من الجزر الأصفر الغريب أو من الخيار الشهي أو حتى من الطماطم البراقة،

فلقد شكوا في ذلك.

شعرت بنوع من الارتياح وقلت لها:

– حسناً.. حسناً امنعوا الجميع من الاقتراب من الحقل. وإذا وضعتموه بين أسلاك شائكة يكون الأمر أفضل حتى لا يغري عابري السبيل أو المارين من المنطقة.

فضحكت وقالت:

ومن سيفعل هذا؟ دع الأمر لله.

وهنا نبتت فكرة في ذهني أنه يجب إعدام هذا الحقل بأي ثمن، وما أن غابت (آيشا) حتى فكرت بالأمر جدياً في إتلاف الحقل، وأسرعت الى السوق لأشتري مواداً بسيطة كلسية واخرى مما يمكن أن يتلف النبات أو يحرقه في أرضه. ونظر إلي بائع مواد البناء بريبة لكنه أعطاني كمية من الكلس، أما المواد الاخرى فكان من الصعب الحصول عليها لولا أن ظهر موهاد أمامي وهو يتهلل فرحاً لأنه حصل على إجازة مرور الى بلده الأصلي. قال لي إنه قد عزم على أن يشتري لي بعض الحوائج كهدية ثم يسافر.

فقلت له:

تعال إذن معي وقدم لي هذه الخدمة بدلاً من الهدية.

وأعطيته أسماء بعض المواد الكيماوية ليعثر لي عليها في تلك المخابيء السرية التي تصنّع المواد المتفجرة في مواجهة العدو، فهذه البلاد لا تخلو من مصانع بدائية ومن وسائل مقاومة بسيطة الصنع تركتها الحروب المتوالية والنزاعات منذ مقاومة الشيوعية. واستغرب موهاد طلبي هذا لكنه لم يسألني عن الهدف.. ولم يلبث أن أخذ مني ورقة صغيرة فيها أسماء المواد المطلوبة وقال لي:

اذهب الآن وسأوافيك في البيت.

شعرت عند ذلك بعمق صداقته لي ونقاءها ومدى الثقة التي يمنحني

إياها.. فهل لي بعد ذلك أن أخفي عنه السر؟ قلت له:

سأنتظرك هنا في المقهى حتى تعود.

فأجاب:

لا الأفضل أن تأخذ كيس الكلس هذا وتذهب حتى لا يشك بك أحد فقد يظنونه كيساً من الطحين وأنا سأتحمل مسؤولية المواد الاخرى.

أمضينا يوماً مضطرباً أنا وموهاد، لم نأكل فيه ولم نشرب وليس بيننا إلا أحاديث متقطعة حتى أفضيت له بالسر.. فبدا مرتعداً وغاضباً وكأن الكارثة قد وقعت فعلاً، وطلب مني بحماس شديد أن أتركه يقوم بالعمل وحده في رش الكلس والمواد الحارقة حتى لا تتوجه الأنظار إليّ أو أصاب بأي أذى لاسيما وأنه في الليل سيغادر الى بلده على الحدود مع باكستان.

ومن بعيد ومع غبش المساء كنت أنظر إليه وهو ينحني فوق كل شبر من الأرض فيرشه بالمسحوق الكلسي أولاً ثم يرويه من تلك المحاليل التي تمت إذابتها في الجردل. ولم ينتهي الأمر معه إلا بعد ساعات تحت ضوء القمر، ولحسن الحظ لم يمر أحد في تلك المنطقة وكأن ما وضع في الأرض قد سقط من السماء، وعاد موهاد وقد اهترأ حذاؤه، وتقرحت يداه، وامتلأت ثيابه بمواد بيضاء وثقوب مختلفة.

تعانقنا وكأننا قمنا معاً بقتل حيوان موبوء أو بدفن مجرم أو وحش.. وشعرنا بالارتياح، وقدمت له بعض ملابسي وحذاءً غليظاً مثل أحذية الجنود كنت استعمله لجولاتي في الحقول كما زودته ببطارية كاشفة، ولما سألته هل يريد نقوداً شمخ برأسه وقال:

لا يا صديقي إن رحلتي لا تحتاج الى نقود لأن أكثرها سيراً على الأقدام.

وتعانقنا من جديد وتصافحنا بعد أن أكلنا شيئا مما أتت به (آيشا) وتعاهدنا أن تكون صداقتنا إلى الأبد، وقل أن يختفي من حياتي سألني بلطف: وهل سأبقى طويلا في هذه المنطقة أم لا؟

وفجّر هذا السؤال إجابة حاسمة لم أكن أتوقعها من نفسي فقل له:

لا لن أغادر قبل أن اطمئن أن أحداً لن يصاب بأذى من هذا الحقل وما يدريك قد أجعل إقامتي هنا لفترة طويلة، أو ربما الى الأبد لأن هؤلاء القوم منحوني الإحساس بالأسرة والوطن المفقود.

جلجلت ضحكته وهو ذاهب من الباب الخارجي صارخاً: آيشا.. آيشا.. إنها تستحق كل ذلك.

إذن فقد فهمني هذا الشاب فهماً جيداً، وأدرك عمق مشاعري، واستجاب لمساعدتي والاهم من كل ذلك أنه حمل السر معه وسافر.

لن أحدثكم طويلا عن علاقتي بآيشا خلال الأيام القليلة التي جمعت فيها ما تبقى من أشيائي الخاصة قبل أن أسلم البيت الى أصحابه ثم أتوجه الى الخيام وكأنني لاجيء يطلب الحماية أو متشرد يبحث عن مأوى، وأولئك الناس الكرام قابلوني بكل محبة وترحاب، واقترب مني والد (آيشا) وهو يلمس وجهي وقد أهملت حلاقة ذقني فترة طويلة قائلاً لي:

– هذه الشعيرات ستصبح لحية ما رأيك؟

قلت له:

لكن اللحية ستحتاج إلى عمامة والى لباس يتناسب في العيش هنا معكم في الخيام.

كانت (آيشا) تنظر إلينا من شق صغير وراء الخيمة، وسمعت إطلاق زغاريد، ولم أجد نفسي إلا وأنا أنطق بعبارة طالما رددتها لأحفظها جيداً وكانت من القرآن.. وهكذا كانت بداية جديدة لحياتي، ونهاية ولو أنها صعبة لروايتي.. وأصبحت مزرعة جو مثل ذكرى من ماضٍ بعيد.. وأصبح الناس الذين كنت منهم وكأنني لم أعد منهم.

**(تمت)**

# عن الرواية

(بذور الشيطان) مساحة للرؤيا بين عالمين متناقضين.. أحدهما يمور في الخداع وآخر يبحث عن النقاء.. وفسحة من الزمن.. وقتامة تتدرج كثافتها بين واقع يتوق له الانسان وتنكسر فيه كل حواجز المحال حتى لكأن المرء يطير فيه من غير جناح.. وآخر يصطدم الرأس فيه بكثافة هذا الواقع الذى قد يكون أكثر مرارة من التجربة ذاتها.. ولكن اللوحة في النهاية لم تغب ولم يطمسها السواد.

صحيح أن الكاتب قد يستشرف المستقبل أو أنه يقف على تخوم الأشياء ليأتى بالأفكار.. أفكار ربما وصفها البعض بأنها تحتفى بكثير من المبالغات أو شطحات الخيال.. ولكن أليس فى عصرنا الراهن ما يفوق الخيال؟

إنها غلالة رقيقة تفصل بين واقعين عندما ننظر إلى ما يتوق له الانسان تحت سطوة العلم وهو يتطلع إلي استلاب الشعوب والسيطرة على مقدراتها حتى يصل به الأمر الى مصادرة أحلامها.. وبين ما يجب أن يكون عليه الانسان.

والعلم.. ما العلم إن لم يكن للخير والنماء؟.. هل يبتهج به الانسان أم أنه يطاله بألسنة من نيران أو بأيد للجان؟

هذه الرواية تقدم إلى القارئ العربى عالما روائيا مختلفا يلقى من خلاله الضوء على مواضيع معاصرة كموضوع الهندسة الوراثية للنبات وفق أحدث المعطيات العلمية، وانعكاسات ذلك على مصائر شعوب بأكملها من حيث غذائها وسر بقائها.

والرواية تكشف عن إجابات لأسئلة قد ترد أو تخفى على كثير من الناس فهل هي بذور للشيطان؟ مواضيع لا بأس لو عرفنا عنها ووقفنا عليها ونحن ننظر إلى آفاق المستقبل.

# الكاتبة

## لينا كيلانى

□ كاتبة وروائية من سوريا، تحمل شهادة الماجستير فى الاقتصاد الزراعى من الجامعة الأمريكية فى بيروت، عملت لعدة سنوات لدى جامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتنمية الزراعية)، ثم تفرغت للعمل الأدبى. تكتب للأطفال منذ السنوات الأولى لدراستها الجامعية حتى أصبحت متخصصة فى أدب الأطفال ورواية الشباب، ومن ثم انتقلت إلى عالم روايات الخيال العلمى، والرواية عموما.

□ لها مساهمات عديدة فى الصحافة السورية والعربية سواء فى المقالة، أو النقد السينمائى، أو القصة القصيرة والقصيرة جدا، والترجمات عن اللغتين الانجليزية والاسبانية.

□ قامت بتأسيس عدد من ملاحق الأطفال فى مجلات وصحف سورية، وهى عضو هيئة تحرير مجلة (أسامة) التابعة لوزارة الثقافة فى سوريا. كما أنها تكتب الدراما التليفزيونية، وأفلام الرسوم المتحركة، ولها عدد من الأعمال فى هذا المجال.

□ تناول مؤلفاتها عدد كبير من الصحفيين والكتّاب فى وسائل الاعلام، كما تناولها نقاد كبار فى ندوات خاصة وفى أبحاث ومحاضرات، وورد تحليل لها من بعض الأكاديميين والدارسين (لأدب الأطفال فى سوريا)، كما كانت تلك المؤلفات موضوع دراسة لرسائل جامعية فى الدراسات العليا فى كل من سوريا، ولبنان، ومصر.

□ لها أكثر من (١٣٠) عملا أدبيا مطبوعا بعضها صادر باللغة الانجليزية، وتتنوع بين أدب الأطفال، ورواية الشباب، ورواية الخيال العلمى، والمسرحية الشعرية، والرواية، والبحث الأدبى.

# أحدث إصـــــدارات روايات الهـــلال

| العدد | اسم الكتاب | المؤلف | التاريخ | الثمن بالجنيه |
|---|---|---|---|---|
| ٦٩٠ | الحب فى زمن العولمة | صبحى فحماوى | يونيه ٢٠٠٦ | ٧,٠٠ |
| ٦٩١ | عطر البرتقال الأخضر | شريف حتاتة | يوليو ٢٠٠٦ | ٥,٠٠ |
| ٦٩٢ | أنا الذى رأى | محمود سعيد | أغسطس٢٠٠٦ | ٧,٠٠ |
| ٦٩٣ | الجميلة حتما توافق | رأفت الميهى | سبتمبر٢٠٠٦ | ٥,٠٠ |
| ٦٩٤ | نعناع الجنان | خيرى شلبى | أكتوبر ٢٠٠٦ | ٦,٠٠ |
| ٦٩٥ | واحة الغروب | بهاء طاهر | نوفمبر٢٠٠٦ | ٧,٠٠ |
| ٦٩٦ | شهرزاد على بحيرة جنيف | جميل عطية إبراهيم | ديسمبر٢٠٠٦ | ٧,٠٠ |
| ٦٩٧ | مأوى الروح | محمد عبدالسلام العمرى | يناير ٢٠٠٧ | ٧,٠٠ |
| ٦٩٨ | ٦١ شارع زين الدين | سعيد نوح | فبراير ٢٠٠٧ | ٧,٠٠ |
| ٦٩٩ | نبيذ أحمر | أمينة زيدان | مارس٢٠٠٧ | ٧,٠٠ |
| ٧٠٠ | جنة مجنون | أسامة أنور عكاشة | أبريل٢٠٠٧ | ٥,٠٠ |
| ٧٠١ | ن | سحر الموجى | مايو ٢٠٠٧ | ٨,٠٠ |